غوستاف فلوبير

إغواء القديس أنطونيوس

ترجمة: عدنان محمد

دار الحوار

إغواء القديس أنطونيوس

الكتاب: إغواء القديس أنطونيوس
المؤلف: غوستاف فلوبير
المترجم: عدنان محمد
تصميم الغلاف: بيري إيبو
الطبعة الأولى:2019/5:
حقوق الطبع محفوظة © دار الحوار للنشر والتوزيع

يتضمن هذا الكتاب الترجمة الكاملة للنص الفرنسي:

La tentation de saint Antoine

Gustave Flaubert

ISBN: 978-9933-592-51-6

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في لاقسم الفني بدار الحوار

حقوق الطبعة العربية محفوظة لدار الحوار للنشر والتوزيع
يمنع نسخ أو تصوير هذا الكتاب أو أجزاء منه بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو تصوير ضوئي أو تسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى دون أذن خطي مسبق من دار الحوار للنشر والتوزيع.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the written permission of Dar Al Hiwar Publishing Company.

دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
ص. ب 1018 اللاذقية، سورية، هاتف وفاكس:
+963 41 422 339
البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com
info@daralhiwar.com

غوستاف فلوبير

إغواء القدّيس أنطونيوس

ترجمة:

عدنان محمد

دار الحوار

1

يشغل كوخ الناسك، في طيبة، صدرَ سطيحة نصف دائرية، في أعلى الجبل، وتحيط به حجارة ضخمة. وهو مبنيّ من الطين والقصب، سطحه مستو، وبلا باب. في داخله جرّة وخبز أسود؛ وفي وسطه مسلّة خشبية، وكتاب كبير. وعلى أرضه، هنا وهناك، ألياف الحلفاء، وحصيرتان أو ثلاث، وسلّة وسكين.

وعلى بعد عشر خطوات من الكوخ، غُرِس صليب طويل في الأرض، وفي الجهة الأخرى من السطيحة شجرة نخيل هرِمة ملتوية تميل نحو الهاوية؛ فالجبل مقطوع شاقولياً، ويبدو نهر النيل وقد صنع بحيرة عند أسفل الجرف الصخري.

الرؤية محدودة إلى اليمين واليسار بسبب السور الصخري. أما من جهة الصحراء، فتتمطّى تموجّات شاسعة ومتوازية، بلونها الأشقر الرمادي، الواحدة تلو الأخرى، كشواطئ متعاقبة، صاعدة دائماً. وبعد الرمال، في البعيد البعيد، تشكّل السلسلة الليبية جداراً لونه طباشيري، وتختفي قليلاً بفعل الأبخرة البنفسجية. وفي المقابل، تنحدر الشمس. والسماء في الشمال بلون رمادي- لؤلؤي، في حين أن كبد

السماء مغطى بغيوم أرجوانية، متجمّعة كلبدة أسدٍ هائلة، وتتطاول في القبة الزرقاء. تغدو هذه الخطوط من اللهب بنّية، وتتخذ قطعُ السماء اللازوردية لوناً شاحباً صدفياً؛ والأحراج، والحصى، والتراب، كل شيء يبدو الآن قاسياً كالبرونز؛ وفي الفضاء يرفرف مسحوق ذهبي، ناعم جداً بحيث إنه يختلط مع اهتزاز الضياء.

جلس القديس أنطونيوس الذي أطلق لحيته وأطال شعره، وهو يرتدي قفطاناً من جلد الماعز، مقاطِعاً ساقيه، مستغرقاً في صنع الحُصر. وما إن تغيب الشمس، حتى يطلق زفرة طويلة وهو ينظر إلى الأفق.

– يوم آخر! ها هو يوم آخر يمضي! ومع ذلك، فيما مضى، لم أكن بائساً إلى هذا الحد! قبل نهاية الليل، كنتُ أبدأ صلواتي؛ ثم أنزل نحو النهر لأحضر الماء، وأصعد عبر الطريق القاسية والقربة على كتفي، وأنا أنشد الأناشيد. وبعد ذلك، أتسلّى بترتيب كوخي كلّه. فأتناول أدواتي، وأحرص على أن تكون الحصر متساوية، والسلال خفيفة؛ لأن أصغر أفعالي كانت تبدو لي آنذاك واجبات لا تحمل أية مشقة.

وفي ساعات منضبطة أترك أعمالي، وإذ كنتُ أصلّي، ممدود الذراعين، كنتُ أشعر وكأن شآبيب الرحمة تتدفّق من أعلى السماء إلى قلبي. لكنها نضبت الآن. لماذا؟

مشى ببطء داخل السور الصخري.

– لاموني جميعاً لأني غادرت البيت: فأمي سقطت ميتة، وأختي أشارت إليّ من بعيد لكي أعود، والأخرى بكت. وأموناريا، تلك الطفلة التي كنتُ ألقاها كل مساء عند غدير الماء، وهي تؤوي جواميسها، ركضت خلفي، وخواتم قدميها تلمع في الغبار، وفستانها المفتوح عند ردفيها يرفرف مع الرياح. والناسك العجوز الذي كان يرافقني، يصرخ متلفّظاً بشتائم. جملانا ما يزالان يعدوان، ولم أرَ أحداً بعد ذلك.

في البداية اخترتُ مسكني في قبرٍ أحد الفراعنة. ولكنّ سحراً سرى في هذه القصور تحت الأرضية، حيث يبدو الهواء كثيفاً بسبب دخان الأطياب القديم. ومن أسفل المقبرة سمعتُ صوتاً متألّماً يناديني؛ أو بالأحرى، رأيت الأشياء الشنيعة المرسومة على الجدران تعيش فجأة، ففررتُ حتى شاطئ البحر الأحمر، حيث قلعة مهدّمة. وهناك كان رفاقي سرطانات تتسلّل بين الحجارة، وفوق رأسي نسور تحلق باستمرار في السماء الصافية. وفي الليل تمزّقني المخالب وتعضّني المناقير، وتتمسّح بي الأجنحة الوانية. وشياطين مرعبة تعوي في أذنيّ، وتقلبني أرضاً، حتى أنقذني أفراد قافلة ذاهبة إلى الإسكندرية، ذات مرة، وأخذوني معهم.

عند ذلك، أردت أن أتعلّم عند العجوز ديديم. على الرغم من أنه كان أعمى، إلا أنه لا أحد يضاهيه في معرفة الخطوط. وحين ينتهي الدرس، يطلب ذراعي لكي يتنزّه. كنتُ أقوده إلى

البانيوم الذي منها تُكتشف المنارة وأعالي البحر. ثم نعود عبر المرفأ، ونحن نخالط بشراً من أمم شتّى؛ حتى السيميريين الذين يرتدون جلود الدببة، ومتصوفي نهر الغانج الذين يدهنون جلودهم بروث البقر. ولكن باستمرار كانت تحدث معركة ما في الشوارع، بسبب اليهود الذين يرفضون دفع الضريبة، أو ثوار يريدون أن يطردوا الرومان. على أية حال، كانت المدينة تغصّ بالهراطقة، والتابعين لمانيس وفالنتين وبازيليد وآريوس،- وكلّهم يحيطون بك لكي يناقشوك ويقنعوك.

أحاديثهم تترجّع أحياناً في ذاكرتي. ومهما حاولتُ ألا أهتمّ بها، فإنها تربكني.

لجأتُ إلى كلوزيم؛ وكانت توبتي نصوحاً جداً بحيث إني لم أعد أخشى الله. اجتمع حولي بعض الأشخاص، لكي يصبحوا نسّاكاً. فرضتُ عليهم قاعدة عملية، كرهاً بغرائب الغنوصية ومقولات الفلاسفة. أُرسلت إليّ رسائل من كل حدب وصوب؛ وتقاطر الناس لمقابلتي من أماكن نائية جداً.

ومع ذلك، فقد كان الشعب يعذّب المؤمنين بالمسيحية، فقادني التعطّش إلى الشهادة إلى الإسكندرية. لقد توقّف الاضطهاد منذ ثلاثة أيام.

ولمّا عدتُ استوقفني حشد من الناس أمام معبد سيرابيس. ويُقال إن ذلك كان مثالاً أخيراً أراد أن يقوم به الحاكم. فوسط صف الأعمدة، وتحت أشعة الشمس المحرقة، رُبطت امرأةٌ

عارية إلى أحد الأعمدة، وراح جنديان يجلدانها بالسياط، كان جسدها يتلوّى مع كل جلدة، التفتت مفتوحة الفم:- ومن فوق الجمهور، وبسبب شعرها الطويل الذي غطى وجهها، اعتقدتُ أني عرفتُ أموناريا...

ومع ذلك... كانت هذه أطول...، وجميلة جمالاً إعجازياً.

مرّر يده على جبينه.

– لا، لا، لا أريد أن أفكّر في هذا.

ذات مرة، دعاني أتاناز لكي أدعمه ضد الآريين. وتحوّل كل شيء إلى صياح وسخرية. ولكن منذ ذلك الحين، اغتيب، وأقيل من منصبه، وهرب. أين هو الآن؟ لا أعرف شيئاً. لا أحد يهمّه كثيراً أن يعطيني أخباراً. هجرني تلاميذي جميعاً، حتى هيلاريون!

ربما كان في الخامسة عشرة حين أتاني؛ وكان ذكاؤه فائقاً بحيث إنه كان يوجّه إلي أسئلة في كل لحظة، ثم يصغي إليّ مفكّراً. وكان يجلب إليّ الأشياء التي أحتاجها دون تذمّر، وكان أخفّ من جدْي، وفرحاً بحيث إنه يضحك البطاركة. كان ابناً لي!

السماء حمراء، والأرض كالحة السواد، تحت هبّات الرياح، ترتفع خطوط من الرمال كأكفان هائلة، ثم تهوي. وفي فترة صحو، تمر أسراب من العصافير فجأة، مشكّلة كتيبة مثلثة الشكل، تشبه قطعة معدنية، وحدّها أطرافُها تهتز.

نظر أنطونيوس إليها.

– آه، كم أودّ أن أتبعها!

وكم من مرة أيضاً تأمّلتُ بحسدٍ السفن الطويلة بأشرعتها التي تشبه الأجنحة، ولاسيما عندما تُقلّ إلى البعيد أولئك الذي استقبلتُهم عندي! أية ساعات سعيدة أمضيناها! وأية مكاشفات! لم يعنِني أحدٌ منهم أكثر من آمون؛ فقد روى لي رحلته إلى روما، والمقابر، والكوليزيوم، وورع النساء الشهيرات، وألف شيء آخر!... ولم أشأ أن أذهب معه! من أين يأتي إصراري على الاستمرار في حياة كهذه؟ كنتُ سأحسن صنعاً بالبقاء عند كهّان نيتري، لأنهم كانوا يتوسّلون إليّ بذلك. كانوا يسكنون في حجرات منعزلة، ومع ذلك يتواصلون فيما بينهم. يجمعهم يوم الأحد البوق في الكنيسة، حيث تُعلَّق ثلاثة سياط تُستخدم لمعاقبة الجانحين واللصوص والدخلاء، لأن انضباطهم قاس.

ومع ذلك، فهُم لا يخلون من بعض الحلاوة؛ إذ يحمل إليهم المؤمنون بيضاً وفواكه وحتى أدوات تقوم بنزع الأشواك من القدمين. وكان هناك كروم عنب حول بيسبيري. وسكان بابين لديهم قارب خشبي لنقل مؤنهم.

ولكن كان من الأفضل لي أن أخدم أخوتي بوصفي كاهناً. نساعد الفقراء، ونوزّع القداديس، ولدينا السلطة على الأسرة.

على أية حال، العلمانيون ليسوا ملعونين جميعاً، ولا يتعلّق إلا بي أن أكون ... على سبيل المثال... نحوياً، وفيلسوفاً. لدي في

غرفتي كرة من القصب، وألواح بين يدي باستمرار، وشبّان من حولي، وعلى بابي علّقتُ إكليلاً من الغار كعلامة فارقة.

ولكن هناك كثير من الكبرياء في هذه الانتصارات! الجندي أفضل! كنتُ ضخم الجثة وجسوراً،- وكافياً لمد سلك الآلات، واجتياز الغابات المظلمة، ودخول المدن المدخّنة وخوذتي على رأسي!... ولا شيء كان يمنعني من أن أشتري بمالي منصب جابي ضرائب عند المرور على جسر ما؛ وكان المسافرون سيروون لي قصصاً وهم يُرونني في أمتعتهم الكثير من الأشياء الغريبة.

تُجار الإسكندرية يبحرون في أيام العيد في نهر كانوف، ويشربون الخمر في كؤوس من اللوتس على صوت الطبول التي تهزُّ الحانات على طول الضفة! وبعدها، أشجار مشذّبة على شكل مخروط تحمي المزارع الوادعة من ريح الجنوب. سطح البيت العالي يستند إلى أعمدة رفيعة، قريبة مثل عصي المناور المتشابكة؛ من خلال فواصل يلمح المعلّم المسموع على طول كرسيّه السهول كلها من حوله، مع الصيادين في حقول القمح ومعصرة العنب والعجول التي تدرس القش. أطفاله يلعبون على الأرض، وزوجته تنحني لتقبله.

في ظلام الليل المائل إلى البياض تظهر هنا وهناك خطومٌ مدببة مع آذان مستقيمة وعيون لامعة. يمشي أنطونيوس نحوها، وتتدحرج حصيات فتهرب الحيوانات. إنها قطيع من بنات آوى.

بقي واحد منها، يقعي على قائمتين، وجسمه نصف دائرة، ورأسه مائل في وضع مليء بالحذر.

– ما أجمله! أريد أن أمرر يدي على ظهره، بهدوء.

صَفر أنطونيوس له لكي يأتي، لكنَّ ابن آوى اختفى.

– آه لقد ذهب لينضم إلى الآخرين! أية عزلة! وأي سأم!

ضحك بمرارة:

– إنها حياة جميلة عندما أشوي على النار قضبان النخيل لكي أصنع عصيّاً، وسلالاً وأحيك حصراً، ثم أبادل هذا كله مع البدو الرُحل بخبز يكسر أسنانك! آه! يا لمصيبتي! ألن ينتهي هذا! فالموت أفضل! لم أعد أستطيع! كفى! كفى!

ضرب بقدمه ودار وسط الصخور بخطوات سريعة، ثم توقف لاهثاً وأطلق شهقات ونام على بطنه فوق الأرض.

الليل هادئ، والنجوم الكثيرة تتلألأ؛ ولا يُسمع إلا طقطقة الرتيلاء.

ذراعا الصليب ترسلان ظلاً على الرمل؛ رآه أنطونيوس الذي يبكي.

– هل أنا ضعيف إلى هذا الحد يا إلهي! بعض الشجاعة، فلأنهض!

دخل إلى كوخه واكتشف جمرةً مغطاة، وأشعل مشعلاً وغرسه على المسلة الخشبية بحيث يضيء الكتاب الكبير.

– سوف آخذ... حياة الرسل!... نعم!... لا يهم أين!

"رأى السماء المفتوحة مع حصيرة كبيرة تنزل من الزوايا الأربع وفيها كل أنواع الحيوانات الأرضية وحيوانات بريّة، وزواحف وطيور وصوت يقول له: انهض يا بطرس! اقتل وكُل!"

– إذاً الرب يريد من رسوله أن يأكل من كل شيء؟... في حين أنني...

ظلَّ أنطونيوس خافضاً رأسه. جعله اهتزازُ الصفحات التي تحركها الرياح يرفع رأسه وقرأ:

"اليهود سيقتلون أعداءهم جميعاً بسيوف وسيقومون بمجزرة كبيرة، بحيث إنهم يتصرفون كما يريدون بمن يكرهون.

وتلا ذلك إحصاء الأشخاص الذين قتلوهم: خمسة وسبعون ألفاً. لقد تعذبوا كثيراً! على أية حال كان أعداؤهم الرب الحقيقي. لا بدَّ أنهم كانوا يستمتعون بالانتقام فهم يقتلون عبدة الأوثان! المدينة تغصُّ بالأموات! فمنهم على عتبات الحدائق، وعلى الأدراج وعلى ارتفاعات في الغرف بحيث إن الأبواب لا يمكن أن تدور!..." –

– ها أنا ذا أغوص في أفكار من القتل والدم!

فتح الكتاب في مكان آخر.

"سجد نبوخذ نصّر ووجهه على الأرض وعَبَدَ دانيال."

– آهَ! هذا جيد! الله تعالى يرفع أنبياءه فوق الملوك؛ مع أن هذا كان يعيش في الولائم، ثملاً باستمرار بملذات الكبرياء. لكنَّ الله عاقبه فحوّله إلى حيوان يمشي على أربع قوائم!

أخذ أنطونيوس يضحك؛ وهو يباعد بين ذراعيه، وبطرف يده يقلّب صفحات الكتاب. وقع نظره على هذه الجملة:

"شعر حزقيال بفرح كبير لوصولهم. أراهم عطوره وذهبه وفضته كلها والزيوت العطرة ومزهرياته الثمينة وكل ما يوجد في خزائنه."

أتخيّل... أن تُرى أحجار ناعمة وماسات ودنانير ذهبية مكوّمة حتى السقف. إن الرجل الذي يملك أكواماً كبيرة كهذه لا يعود يشبه الآخرين. يفكر، وهو يحركها، أنه يملك نتيجة كمية لا تُعد ولا تُحصى من الجهود، ومثل حياة الشعوب التي ضخّتها ويمكن أن ينشرها. إنه حذر غير مجد بالنسبة للملوك! والأكثر حكمة بينهم جميعاً لا يفوته هذا. أساطيله تحمل إليه عاجاً، وقروداً... أين هذا إذاً!

وقلّب الصفحات بنشاط.

– آه! هو ذا!

"حين علمت ملكة سبأ بمجد سليمان أتت لتغريه طارحة عليه ألغازاً."

كيف كانت تأمل أن تغويه؟ لقد أراد الشيطان أن يغوي يسوع! لكنَّ يسوع انتصر لأنه كان الرب، وسليمان ربما بفضل علمه كساحر. إنه رائع، هذا العلم! لأن العالم، - كما شرح لي أحد الفلاسفة،- يشكل مجموعة يؤثر كل جزء من أجزائها ببعضها كأعضاء الجسد الواحد. لذا فالمطلوب هو معرفة

مشاعر الحب والكراهية الطبيعية للأشياء، ثم تحريكها؟... إذاً هل يمكن تغيير ما يمكن أن يبدو نظاماً سرمدياً؟

عند ذلك، انعكس إلى الأمام الظلّان اللذان رسمهما ذراعا الصليب خلفه. إنهما يشبهان قرنين كبيرين؛ صاح أنطونيوس:

– أنقذني يا إلهي!

وعاد الظل إلى مكانه.

– آه!... كان هذا وهماً! وليس شيئاً آخر!-لا فائدة من أن أعذّب روحي؛ ليس لدي ما أفعله!... ليس لدي شيء على الإطلاق!

جلس مقاطعاً ذراعيه.

– ومع ذلك...ظننتُ أني شعرتُ باقتراب... ولكن لماذا سيأتي؟ على أية حال، أنا لا أعرف ألاعيبه؟ لقد طردتُ الناسك المتوحش الذي قدّم لي وهو يضحك خبزاً ساخناً، والسنطور الذي يسعى إلى نقلي على مؤخرته،- وهذا الطفل الأسود الذي ظهر من وسط الرمال، كان وسيماً جداً وقال لي إنه يُدعى روح الزنا.

مشى أنطونيوس إلى اليمين وإلى اليسار بسرعة.

– بأمر مني بُني هذا الجمع من المساكن المقدسة، المليئة برهبان يحملون كؤوساً تحت ملابسهم المصنوعة من جلد الماعز، عددهم كبير بحيث يمكنهم أن يشكّلوا جيشاً! لقد شفيتُ من بعيدٍ مرضى؛ وطردتُ أرواحاً، واجتزتُ النهر وسط

التماسيح، وقد كتب لي الإمبراطور قسطنطين ثلاث رسائل. وبالاسيوس الذي كان قد بصق على رسائلي، مزّقته خيوله؛ وشعب الإسكندرية تطاحن لرؤيتي عندما ظهرت. وقادني أتاناز على الطريق من جديد. ولكني أية أعمال أيضاً! ها هي ثلاثون سنة قد مرّت علي وأنا ما أزال أئنّ في الصحراء. حملتُ على خصري ثمانين ليرة من البرونز، مثل أوزيب، وعرّضتُ جسمي لوخز الحشرات مثل ماكير، وبقيت ثلاثاً وخمسين ليلة لم يغمض لي فيها جفن مثل باكوم؛ والذين تُقطع رؤوسهم، ويُسحلون ويُحرَقون لهم فضلي على الأقل؛ ربما لأن حياتي شهادة مستمرة!

تباطأ أنطونيوس.

– لا أحد يعرف هذه الضائقة العميقة بكل تأكيد! القلوب الخيّرة تتناقص. ولم أعُد أُعطَى شيئاً؛ معطفي بلي، ولم يعد لدي صندل، ولا حتى قصعة.- لأني وزعتُ أملاكي كلّها على الفقراء وعلى عائلتي، ولم أُبقِ قرشاً واحداً. حتى لو كان ذلك من أجل امتلاك الأدوات الضرورية لعملي، يلزمني قليل من المال! أوه! ليس كثيراً! يلزمني مبلغ صغير!... سوف أوفّره.

– آباء نيقيا، بقفطاناتهم الأرجوانية النبيلة، يجلسون كسحرة على عروشهم، على طول الجدار؛ ويُطعَمون في وليمة، محاطين بالاحترام والتبجيل، ولاسيما بافنوس، لأنه أعور وأعرج منذ اضطهاد ديوقليسيانوس! لقد قبّل الإمبراطور غير

مرة عينه المفقوءة؛ يا لها من حماقة! ومع ذلك، كان في المجمع أعضاء فاسدون جداً! تيوفيل، أسقف سيتي، وآخر من بلاد فارس، يوحنا، وحارس أغنام، سبيريدون! كان ألكسندر عجوزاً فانياً. وكان أتاناز سيُبدي نعومة أكثر مع الآريين، من أجل الحصول على تنازلات.

هل كانوا سيفعلون هذا؟ لم يريدوا أن يسمعوا كلامي! من يتكلّم ضدي هو شاب لحيته مجعدة، ورماني، بهيئة هادئة، اعتراضات كيفية؛ وبينما كنتُ أبحث عن كلماتي، كانوا ينظرون إليّ بوجوههم الشرّيرة، وهم ينبحون كالضباع. أوه! ليتني أستطيع أن أنفيهم جميعاً بوساطة الإمبراطور، أو الأحرى أن أضربهم، وأسحقهم، وأراهم يتعذّبون! فأنا أتألّم كثيراً!

استند إلى كوخه وهو يفقد وعيه.

– لقد خارت قواي لأني أفرطتُ في الصيام؟ ليتني آكل... مرة واحدة فقط... قطعة لحم.

وبإعياء أغمض عينيه نصف إغماضة.

– آه! لحم أحمر... عنقود عنب أعضّه!... لبن رائب يرتعش على طبق!... ولكن ما بي؟ ... أحسّ بقلبي يتضخّم كالبحر، عندما ينتفخ قبيل العاصفة. وهنٌ شديد يغزوني، والهواء الحار، يبدو وكأنه يحمل لي عطر شعر. ومع ذلك، ألم تأت أية امرأة؟

نظر نحو الطريق الصغيرة بين الصخور.

– من هناك يأتين. يهتززن على محفّة من أذرع الخصيان السوداء. ينزلن ويضممن أيديهن المليئة بالخواتم، يركعن؟ يروين لي همومهن المقلقة، الحاجة إلى شهوة خارقة تعذّبهن؛ يردن الموت؛ فقد رأين في أحلامهن آلهة ينادونهن، وأسفل فساتينهن يسقط على قدمي! أدفعهن. "أوه، لا، يقلن، ليس بعد! ماذا يجب أن أفعل؟" كل التوبات ستكون جيدة بالنسبة إليهن. إنهن يطلبن التوبات الأقسى، أن يقتسمن توبتي، أن يعشن معي.

– لم أرَ امرأة منذ زمن طويل! قد تأتي واحدة؟ لم لا؟ ماذا لو فجأة... كنتُ سأذهب لأسمع رنين أجراس البغال في الجبل. يبدو لي...

تسلّق أنطونيوس صخرة. عند مدخل الطريق، انحنى، وهو يجيل عينيه في الظلام:

– نعم، هناك، في البعيد، كتلة تتحرّك، كأن هناك أشخاصاً يبحثون عن طريقهم. إنها هناك، لقد أخطؤوا.

نادى:

– من هذه الناحية، تعالي! تعالي!

كرّر الصدى: تعالي! تعالي!

أسبل ذراعيه مذهولاً.

يا للعار! مسكين يا أنطونيوس؟

وسمع مباشرة همس: "مسكين يا أنطونيوس!"

هل هناك أحد؟ أجيبوا!

الرياح التي تمر من بين فواصل الصخور، تصدر ألحاناً، وفي هذه الأصوات المضطربة، ميّز أصواتاً، كما لو أن الهواء يتكلّم. إنها خافتة، وحادة وصافرة.

الأول:

- هل تريد نساء؟

الثاني:

- أم تفضّل أكواماً كبيرة من المال؟

الثالث:

- أم سيفاً يلمع؟

وأصوات أخرى:

- الشعب بأسره معجب بك!

- نَمْ!

- سوف تذبحهم، هيا، سوف تذبحهم!

وفي الوقت نفسه، تغيرت الأدوات. على حافة الجرف الصخري، النخلة العجوز مع مجموع أوراقها الصفراء، أصبحت النصف الأعلى لجسد امرأة منحنية على الهاوية، وشعرها الطويل يتموّج.

عاد أنطونيوس إلى كوخه، فبدا له الحامل الذي يحمل الكتاب الكبير، مع صفحاته المليئة بأحرف سوداء، شجيرة مغطّاة بالسنونو.

إنه المشعل بكل تأكيد، هو الذي يقوم بلعبة الضوء... فلنطفئه!

أطفأه، فعمّ ظلام دامس.

وفجأة مرّ وسَطَ الهواء، أولاً بركةُ ماء، ثم مومسٌ،، ثم زاوية معبد، ثم صورة جندي، وأخيراً عربة يجرّها حصانان أبيضان يشرئبّان.

وصلت هذه الصور فجأة على دفعات، تظهر في الليل كطلاء أحمر فاقع على الأبنوس.

تتسارع حركتها، فتتحرّك بطريقة مدوِّخة. وفي مرات سابقة كانت تتوقّف وتشحب على درجات حتى تذوب، أو تطير، فتصل أخرى مباشرة.

أغمض أنطونيوس جفنيه.

إنها تتكاثر، وتحيط به، تحاصره. غزاه رعب عصيّ على الوصف. لم يعد يشعر بشيء إلا بتقلّص حارق في معدته. وعلى الرغم من الضجيج في رأسه، شعر بصمت مطبق يفصله عن العالم. حاول أن يتكلّم؛ مستحيل! كما لو أن الرابط العام لكيانه قد انحلّ، ولما لم يعد بمقدوره المقاومة، هوى على الحصيرة.

2

عند ذلك ارتسم على الأرض ظلٌّ كبير، أضخم من ظل طبيعي، ومن الظلال المتكاثرة في جواره. إنه الشيطان متكئاً على سطح الكوخ، وحاملاً تحت جناحيه، - كخفّاش عملاق يُرضِع صغاره- الخطايا السبع الرئيسة، تَظهَر رؤوسها العابسة طريقة مختلطة.

ما تزال عينا أنطونيوس مغمضتين، وهو يمد أطرافه على الحصيرة مستمتعاً بهموده. وهي تبدو له ناعمة أكثر فأكثر - بحيث إنها تزدان وتعلو، حتى تصبح سريراً، والسرير يصبح زورقاً يترقرق الماء من جانبيه.

إلى يمينه وإلى يساره يرتفع لسانان من التراب الأسود، تسيطر علهما حقول محروثة، مع جمّيزة، من مكان إلى آخر. وصوت جلاجل ومغنين يدوّي من بعيد. لا بدّ أنهم أشخاص يذهبون هذا المساء إلى كانوب لينامواعلى معبد سيرابيس ليحلموا. أنطونيوس يعرف هذا؛ وينزلق مدفوعاً من الرياح، بين ضفتي القناة التي تنحني علها أوراق البردي وأزهار النيلوفر

الحمراء، الأطول من الرجل. وفي جوف الزورق يُسمع مجداف ينساب في الماء. بين وقت وآخر تصله نفحةٌ فاترة، وتتصادم أعواد القصب الرفيعة. كما يتناقص همس الأمواج الصغيرة. فتأخذه غفوة، ويحلم أنه وحيدُ مصر.

عند ذلك يهبُّ واقفاً.

– هل حلمتُ؟... كان ذلك واضحاً جداً بحيث إنني أشك فيه. إن لساني يحرقني، أنا ظمآن!

دخل إلى كوخه وأخذ يتلمّس في كل مكان.

– الأرض رطبة!... هل هطل المطر؟ هذه قطع... جرتي كُسِرت... ولكن أين القربة؟

وجدها. كانت فارغة! فارغة تماماً!

– يلزمني ثلاث ساعات على الأقل لكي أنزل إلى النهر، والليل حالك بحيث إني لن أرى أين سأمشي. أمعائي تلتف. أين الخبز؟

بعد أن بحث طويلاً وجد قطعة خبز بحجم بيضة.

– ماذا؟ هل أخذته بنات آوى؟ آه، اللعنة!

غضِبَ فرمى الخبز أرضاً.

ما إن فعل هذه الحركة حتى وجد أمامه مائدة مغطاة بأطايب الطعام. الغطاء محزز كأشرطة العنقاء، وهو نفسه يُصدر تموجات مضيئة. وتوجد عليه قطع ضخمة من اللحم الأحمر، وأسماك كبيرة، وطيور مع ريشها، ورباعيات الأرجل مع

وبرها، وفواكه بلون شبه بشري؛ وقطع ثلج بيضاء، وأباريق من الكريستال البنفسجي تتقاذف النيران. ميّز أنطونيوس في وسط المائدة خنزيراً برياً يتصاعد البخار من مسامه، وقوائمه تحت بطنه، وعيناه نصف مغمضتين؛ أمتعتْه فكرةُ تمكُّنه من أكل هذا الحيوان الرهيب إلى أقصى الحدود. ثم، هذه أشياء لم يرها قطُّ؛ لحم مفروم أسود، ومربيات بلون ذهبي، ومرق تسبح عليها قطع الفطر كأزهار النيلوفر على سطح المستنقعات، ورغوة خفيفة جداً بحيث إنها تشبه الغيوم. تذكّره روائح هذه الأطعمة كلها برائحة المحيط المالحة وببرودة عيون الماء وعطر الغابات. فتح منخريه بقدر ما يستطيع؛ وسال لعابه؛ وقال لنفسه إن لديه من الطعام ما يكفيه لسنة، لعشر سنوات، طوال حياته!

وكلّما نزّه عينيه الجاحظتين على هذه الأطباق، تراكمت أطباقٌ أخرى مشكِّلةً هرماً تتداعى زواياه. وبدأت الخمور تسيل، والأسماك تنبض، والدم في الأطباق يغلي، ولب الفواكه يتقدّم كشِفاهٍ عاشقة؛ صعِدت المائدة حتى صدره، حتى ذقنه؛ لا تحمل إلا طبقاً واحداً وقطعة خبز واحدة موجودة مقابله تماماً.

أراد أن يُمسك قطعة الخبز فأتته قطع أخرى.

– من أجلي أنا!... هذا كلّه! ولكن...

تراجع أنطونيوس.

بدلاً من واحد كان موجوداً، ها هوا... معجزة، إذاً، هو نفسه الذي صنعه الرب!...

– لأية غاية؟ آه! والباقي كله غير مفهوم أيضاً! آه! أيها الشيطان، اذهب! اذهب!

ورفس الطاولة بقدمه، فاختفت.

– لم يعد يوجد شيء؟ - لا!

تنفّس بعمق.

– آه! لقد كان الإغواء قوياً! ولكن كيف تخلّصت منه؟

رفع رأسه فارتطم بشيء أصدر صوتاً.

– ما هذا إذاً؟

انحنى أنطونيوس.

– إنها كأس! لا بدَّ أن أحداً ما فقدها وهو مسافر. لا يوجد شيء غير عادي...

بلّل إصبعه وفرك.

– هذا يلمع! معدن! ومع ذلك أنا لا أُميز...

أشعل مشعله وتفحّص الكأس. هي من الفضة مزينة ببيوض عند حافتها، مع ميدالية في قاعها.

يجب أن يُخرج الميدالية بضربة من ظفره.

– إنها قطعة نقدية تعادل... من سبعة إلى ثمانية دراخما؛ لا أكثر! لا يهم! يمكنني بهذه القطعة أن أشتري جلد شاة.

أضاء الكأس انعكاس المشعل.

– غير ممكن! إنها من الذهب! نعم!... من الذهب الخالص!

قطعة أخرى، أكبر من هذه، توجد في القاع، تحت هذه، ووجد عدة قطع أخرى أيضاً.

– لكن هذه القطع تساوي مبلغاً... يكفي لشراء ثلاثة عجول... حقل صغير!

امتلأت الكأس بالقطع الذهبية.

– إذاً! مئة عبد وجنود، جمهور، سأشتري...

انفصلت حبيبات الحافة وشكّلت قلادة من اللؤلؤ.

– بهذه الجوهرة يمكنني أن أحصل حتى على زوجة الإمبراطور!

بحركة واحدة، زلق أنطونيوس القلادة على معصمه. أمسك الكأس بيده اليسرى ورفع بذراعه الأخرى المشعل لكي ينيره بشكل أفضل. كالماء الذي يسيل من فسقيّة سال من الكأس بدفقات متواصلة بحيث إنه شكّل أكمة على الرمل، - ماساتٌ وياقيتٌ وسفير، مختلطة مع قطع كبيرة من الذهب تحمل صور ملوك.

– ماذا؟ ماذا؟ دنانير داريّة، وحلقات! الإسكندر، ديمتريوس، والبطالمة، وقيصر! ولكنّ أياً منهم لم يكن يملك بهذا القدر! لا شيء مستحيل! لم يعد لدي معاناة! وهذه الأشعة التي تبهرني!آه! إن قلبي يفيض! ما أطيب هذا! نعم!...

نعم!... أيضاً! لا يكفي أبداً! مهما ألقيتُ منها في البحر، فسيبقى لدي. لماذا أضيّعها؟ سأحتفظ بكل شيء دون أن أقول لأحد. سوف أحفر لنفسي غرفة في الصخر، وسيكون داخلها مغطى بأنصال برونزية- وسآتي إلى هناك لكي أشعر أن أكوان الذهب تغوص تحت عقبيّ. وسأُدخِل فيها ذراعي كما أُدخلها في أكياس الحبوب. أريد أن أفرك بها وجهي، وأن أنام فوقها.

أفلت المشعل لكي يعانق الكومة فسقط أرضاً على صدره.

نهض: المكان خاوٍ تماماً.

– ماذا فعلت؟ إذا كنتُ ميتاً في أثناء هذا الوقت، فإنه الجحيم! الجحيم الذي لا عودة منه!

ارتعد جسمه كلّه.

– إذاً أنا ملعون؟ إيه لا! إنه خطئي! فأنا أترك نفسي أسقط في الأفخاخ كلّها! لا أحد أتفه مني، ولا أكثر عاراً! أريد أن أضرب نفسي، أو بالأحرى أن أنتزع روحي من جسدي! منذ زمن طويل جداً وأنا متمالكٌ نفسي! أنا بحاجة لأنتقم من نفسي! لأضرب، لأقتل! أحسّ كما لو أن في نفسي قطيعاً من الحيوانات الشرسة. أريد ضربات فأس... وسط جمهور... آه! خنجر!...

ارتمى على سكينه الذي لمّعه، انزلق السكين من يده، وظل أنطونيوس مستنداً إلى جدار كوخه، وفمه مفتوح على اتساعه، جامداً، متخشّباً.

واختفى كل شيء من حوله.

ظن نفسه في الإسكندرية، على البانوم، وهو جبل مصطنع يحيط به درَج دائري، منصوب في وسط المدينة.

تمتد بحيرة مربوط أمامه، والبحر إلى يمينه، والريف إلى يساره، - وتحت نظره مباشرة، خليط من الأسطح المستوية، مخترَق من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب بشارعين يتقاطعان ويشكّلان على طولهما، صفاً من الأعمدة تيجانها كورنثية. البيوت التي تعلو هذه الصفوف المضاعفة من الأعمدة لها نوافذ زجاجها ملوّن؟ وبعضها يحمل من الجهة الخارجية أقفاصاً خشبية ضخمة، يدخل فيها هواء الخارج.

معالم معمارية تصطف بعضها بجانب بعض. بوابات المعابد المصرية تعلو المعابد الإغريقية، وتظهر مسلّاتٌ كرماح بين أبراج من القرميد الأحمر. وفي وسط الساحات، يوجد تمثال لهرمس بأذنين مدبّبتين، وأنوبيس برأس كلب. رأى أنطونيوس فسيفساء في الساحات، وسجاجيد معلّقة على العوارض السقفية.

بنظرة واحدة عانق المرفأين (المرفأ الكبير ومرفأ أونوست) المستديرين كسيركين، واللذين يفصل بينهما مكسر يصل الإسكندرية بالجزيرة الشاهقة التي بُني عليها برج المنارة المربعة الزوايا والتي ترتفع نحو خمسمائة ذراع، على تسع طبقات،- مع كومة من الفحم غير المدخن على قمتها.

مرافئ صغيرة تفصل بين المرفأين الكبيرين. وينتهي المكسر في كل طرف من طرفيه بجسر مبني على أعمدة من الرخام مغروسة في البحر. وتمر من تحتها أشرعة؛ وسفن ثقيلة تفيض بالبضائع وسفن مرصّعة بالعاج وجندولات مغطاة وزوارق ثلاثية المجاديف وثنائية المجاديف، وكل أنواع الزوارق تتحرك أو تقف بجانب الأرصفة.

ترتفع حول المرفأ الكبير سلسلةٌ متصلة من الأبنية الملكية: قصر البطالمة، والمتحف والبوزيديوم والسيزاريوم والتيمنيوم حيث التجأ ماركوس - أنطونيوس، والسوما الذي يحوي قبر الإسكندر؛ في حين يُرى في الطرف الآخر من المدينة، بعد مرفأ أونوست، في الضاحية، مصانع زجاج وعطور وورق البردي.

باعة متجولون وحمّالون وحمير، يجرون ويتصادمون. هنا وهناك كاهن أوزيريس يضع على كتفه جلد نمر، وجندي روماني يعتمر خوذة برونزية، وكثير من الزنوج. وعند أبواب الدكاكين تقف نساء، وحرفيون يعملون؛ وطقطقة العربات تُطيّر العصافير التي تأكل على الأرض نفايات محلات الجزارة وبقايا الأسماك.

يُلقي رسم الشوارع شبكة سوداء على الشكل الموحد للبيوت البيضاء. الأسواق المليئة بالأعشاب تصنع فيها باقات خضراء ومجفّات دبّاغي اللوحات الملونة والزينات الذهبية على جبهات المعابد نقاط مضيئة، - وهذا كله محتوى ضمن السور

البيضوي للجدران المائلة إلى اللون الرمادي، تحت قبة السماء الزرقاء، قرب البحر الساكن.

لكنَّ الجمهور يتوقف، وينظر باتجاه الغرب حيث تتقدم دوّامات هائلة من الغبار.

إنهم كهنة طيبون، يرتدون جلود ماعز، ويحملون هراوات ويصرخون بأناشيد الحرب والدين مع لازمة: "أين هم؟ أين هم؟"

فهِمَ أنطونيوس أنهم أتوا لقتل الآريين.

وفجأة فرغت الشوارع، - ولم تعد تُرى أية أقدام ترتفع.

النسّاك يملؤون المدينة الآن، وهراواتهم الرهيبة المزودة بمسامير تدور كشموس من الفولاذ. سُمِعت طقطقة أشياء مكسورة في البيوت. وهناك فواصل صمت. ثم ترتفع صرخات هائلة.

من طرف الشوارع إلى طرفها حركة مستمرة لشعب مرعوب.

بعض منهم يحمل حِراباً. وأحياناً تلتقي مجموعتان لتصبح مجموعة واحدة؛ وهذه الكتلة تتقدم على البلاط، تنفصل ثم تنهار. ولكن الرجال ذوي الشعور الطويلة يظهرون دائماً. تتصاعد أعمدة من الدخان من زاوية الأبنية. وتتفجّر مصاريع الأبواب. وتنهار قطع الجدران، وتسقط الحواجز.

وجدَ أنطونيوس أعداءه كلهم الواحد تلو الآخر. اعترف أنه كان قد نسيهم؛ قبل أن يقتلهم، ويُهينهم، ويبقر بطونهم

ويذبحهم ويضربهم، ويجر العجائز من لحاهم، ويسحق الأطفال، ويضرب الجرحى. ويُنتَقم من الرفاهية: فمن لا يجيدون القراءة يمزقون الكتب، وآخرون يكسرون ويتلفون التماثيل واللوحات الفنيّة والأثاث والصناديق وألف شيء يجهلون استخدامه ولهذا السبب فإنهم يستشيطون غيظاً. بين وقت وآخر يتوقّفون لاهثين، ثم يبدؤون من جديد.

السكان الذين التجؤوا إلى الباحات يئنّون. والنساء يرفعن عيونهن الباكية وأذرعهنَّ العارية إلى السماء. لكي يثنين النسّاك عن أفعالهم، يُقبّلنَ ركبهم؛ فيقلبوهن وينفجر الدم حتى الأسقف، ويسقط من جديد على شكل أغطية على طول الجدران، ويتقطّر من جذوع الجثث المقطوعة الرؤوس ويملأ مجاري الري، ويشكّل على الأرض بِرَكاً واسعة من الدماء.

لدى أنطونيوس بركة تصل إلى ركبتيه، يمشي بداخلها، ويمرّر قطراتها على شفتيه، ويرتعش فرحاً بالإحساس بها على أطرافه، تحت قفطانه المصنوع من الوبر المغطّس فيها.

خيّم الظلام، وهدأ الصخب. واختفى الرهبان.

وفجأة لمح أنطونيوس على الشرفات الخارجية المحيطة بطبقات المنارة التسع خطوطاً عريضة سوداء، كما تكون غربان موقوفة. ركض إليها ووجد نفسه في قمتها.

مرآة نحاسية كبيرة تدور حول أعالي البحر، وتعكس السفن المبحرة في عرضه.

تسلّى أنطونيوس بالنظر إليها، وكلّما أمعن النظر إليها ازداد عددها. لقد تجمّعت في خليج له شكل هلال. وفي الخلف وعلى مكان مشرف، تمتد مدينة جديدة مبنية على الطراز الروماني، مع قبب حجرية، وأسطح مخروطية الشكل، ورخام وردي وأزرق، وفيض من البرونز موضوع على تيجان الأعمدة، وأضلاع المنازل، وزوايا الكورنيشات، وخشب الأرز يسود فيها، ولون البحر أكثر خضرة، والهواء أكثر برودة. ويوجد ثلج على قمم الجبال التي في الأفق.

كان أنطونيوس يريد أن يتابع طريقه، حين اعترضه رجل وقال له: "تعال! نحن بانتظارك!"

اجتاز رواقاً، ودخل في فناء، ثم انحنى تحت أحد الأبواب، ووصل إلى أمام واجهة القصر المزيَّن بمجموعة من الشمع تمثّل الإمبراطور قسطنطين وهو يصرع التنّين. حوض من السمّاقي، تحمل في وسطها قوقعة ذهبية مليئة بالفستق الحلبي. قال له دليله إن بوسعه أن يأخذ منه، فأخذ.

ثم تاه تقريباً في سلسلة من الشقق.

شاهَد على الجدران المغطاة بالفسيفساء، قادة جيوش وهم يقدّمون للإمبراطور على راحة أيديهم مدناً محتلّة. وأعمدة البازلت كانت في كل مكان، وشباك من خيوط الفضة، ومقاعد من العاج، وسجاجيد مطرّزة باللآلئ. النور يهبط من القباب. يتابع أنطونيوس طريقه، روائح فاترة تضوع؛ ويسمع أحياناً

طقطقة صندل بعيدة. يقف الحرّاس في الردهة الأمامية - وهم يشبهون الآلات- حاملين على أكتافهم عصياً قرمزية اللون.

وأخيراً وجد نفسه في بداية قاعة تنتهي في صدرها بستائر كهباء اللون. ابتعدت وكشفت الإمبراطور جالساً على عرش، بثوبه البنفسجي، وينتعل جزمة حمراء لها سيور سوداء.

تاج من اللآلئ يحيط بشعره المصفوف في لفائف متناظرة. أجفانه مخفضة، وأنفه مستقيم، وهيئته ثقيلة وماكرة. على زوايا غطاء العرش الممتد فوق رأسه، وُضعت يمامات ذهبية، وعند أسفل العرش، يربض أسدان مصنوعان من الميناء. تبدأ اليمامات بالهديل ويأخذ الأسدان بالزئير.. أجال الإمبراطور بصره. فتقدّم أنطونيوس. وفجأة دون مقدمات، يروون أحداثاً. في مدن أنطاكيا وأفسس والإسكندرية، هُدمت المعابد وصُنع من تماثيل الآلهة أوانٍ وقدور. ضحك الإمبراطور لهذا كثيراً. ولامه أنطونيوس على تسامحه مع النوفاسيين. لكن الإمبراطور غضب. فالنوفاسيون والآريون والميليسيون يُضجرونه جميعاً. ومع ذلك فهو معجب بالمجمع؛ لأن المسيحيين يرفعون الأساقفة، يتعلقون بخمس أو ست شخصيات. والمقصود هو كسب هؤلاء لكي يستميل الآخرين جميعاً. كذلك لم يتوان عن دفع مبالغ كبيرة لهم. ولكنه يكره آباء مجمع نيقيا.- "هيا لنراهم"، تبعه أنطونيوس.

وجدوا أنفسهم على الرصيف مباشرة. إنه يُشرف على مضمار مليء بالناس تعلوه صفوف أعمدة حيث يتنزّه بقية

الجمهور. وفي وسط حقل السباق تمتد صفيحة ضيقة تحمل على طولها معبد مركور وتمثال قسطنطين وثلاث أفاع من البرونز ملتفة بعضها على بعض وفي أحد الأطراف بيوض كبيرة من الخشب، وفي الطرف الآخر سبعة دلافين ذيولها في الهواء.

خلف الرواق الإمبراطوري حكام الغرف ورؤساء الخدم يتسلسلون حتى الطابق الأول من كنيسة نوافذها كلها مليئة بالنساء. إلى اليمين منصّة الحراسة الزرقاء، وإلى اليسار منصة الحراسة الخضراء، وفي الأسفل ثلة من الجنود، وعلى مستوى الحلبة صفٌّ من الأقواس الكورنثية يشكّل مدخل المقصورات.

السباقات ستبدأ، والخيول تصطف. رياش طويلة مغروسة بين آذانها تهتز مع الرياح مثل الأشجار؛ والخيول تهزُّ، في قفزاتها عربات على شكل قوقعة، يقودها حوذيون يرتدون نوعاً من الدروع متعددة الألوان، لها أكمام ضيقة عند المعصم تتسع على الذراع، وسوقهم عارية، وكلهم ملتحون وشعورهم حليقة فوق جباههم على طريقة الهون. في البداية أُصيب أنطونيوس بالصمم بسبب الأصوات المتعالية. من الأعلى إلى الأسفل، لم يلمح إلا وجوهاً مصبوغة وثياباً مرقّشة وصفائح ذهبية؛ ورمل الحلبة الأبيض تماماً يلمع كمرآة.

حدّثه الإمبراطور. وأسرَّ إليه بأمور هامة، سرية، واعترف له باغتيال ابنه كريسبوس، وحتى طلب منه نصائح من أجل صحته.

في تلك اللحظة لاحظ أنطونيوس وجود عبيد داخل المقصورات. إنهم آباء مجمع نيقيا، يرتدون ثياباً بالية وهم مهانون. الشهيد بافنوس يمسح عُرف حصان، وتيوفيل يغسل قوائم حصان آخر، ويوحنا يطلي حوافر ثالث وألكسندر يجمع الروث بسلة.

مرَّ أنطونيوس بينهم، فأحاطوا به ورجوه أن يتوسط لهم، وقبّلوا يديه. بينما الجمهور بأسره ندّد بهم مسروراً بالحط من قدرهم سروراً يفوق الحد. لقد أصبح أحد الكبار في القصر، كاتم أسرار الإمبراطور، كبير الوزراء! وضع قسطنطين تاجه على جبينه. أبقاه أنطونيوس، إذ وجد هذا الشرف بسيطاً جداً.

وسرعان ما كُشِفت تحت الظلمات صالة واسعة، تنيرها شمعدانات ذهبية. أعمدة نصف تائهة في الظل من فرط طولها، تصطف إلى خارج الطاولات التي تمتد حتى الأفق؛ حيث تظهر في بخار لامع أدراج متراكبة وسلاسل أقواس وتماثيل عملاقة وأبراج، وفي الخلف سياج غامض للقصر تتجاوزه أشجار أرز مشكِّلة كتلاً أشد سواداً من الظلام.

المدعوون المتوّجون بأزهار البنفسج يستندون بمرافقهم إلى أسرّة منخفضة جداً. وعلى طول هذين الصفّين خوابٍ تُمال لسكب الخمر؛ - وفي الصدر، وحده الملك نبوخذ نصّر، يضع على رأسه تاجاً مرصعاً بالبهرمان، يأكل ويشرب.

إلى يمنيه وإلى يساره صفّان من الكهنة الذين يعتمرون قلانس مدببة يؤرجحون المجامر. وعلى الأرض، تحته، يزحف

ملوكٌ أسرى بلا أرجل ولا أيدٍ، يرمي لهم عظاماً ليقضموها؛ وإلى الأسفل منهم يقف أخوته معصوبي الأعين؛ لأنهم عميان جميعاً.

شكوى مستمرة تتصاعد من قاع السجون. نغمات أرغن ناعمة وبطيئة تتناوب مع جوقات أصوات؛ ويُلاحظ أنه يوجد حول القاعة مدينة هائلة، محيط من البشر تضرب أفواجهم الجدران.

العبيد يركضون حاملين أطباقاً، ونساء يتجولنَ ويقدّمن الشراب، وسلال تنوء تحت ثقل الخبز، وجمل محمّل بقِرَب مثقوبة يمرُّ ويعود تاركاً الماء المعطّر يسيل ليرطب الأرض.

ويُحضر مروّضو الوحوش أسوداً. راقصات يجمعن شعورهنَّ في شباك، يدرن على أيديهن ويُخرجن النار من أنوفهن؛ وبهلوانات زنوج يقدّمون ألعابهم، وأطفال عراة يتقاذفون كرات من الثلج تنسحق حين تسقط على الأواني الفضية. الهتاف رهيب جداً بحيث إنه يشبه العاصفة، وترفرف غيمة فوق المائدة من كثرة اللحوم والأنفاس. وأحياناً تنتزع الرياح شرارة من المشاعل الكبرى وتجتاز الظلام كنجم يهوي.

الملك يمسح بذراعه عطور وجهه. إنه يأكل في الأواني المقدّسة ثم يكسرها؛ وهو يعدد بينه وبين نفسه أساطيله وجيوشه وشعوبه. بعد قليل، بنزوة منه، سوف يُحرق قصره

مع ضيوفه. إنه ينوي أن يعيد بناء برج بابل وأن يزيح الله عن عرشه.

قرأ أنطونيوس من بعيد أفكاره كلها على جبينه. لقد دخلت إليه، وأصبح نبوخذ نصّر سرعان ما شبع من الإفاضات والإبادات؛ وحملته رغبة لأن يندفع في الانحطاط. على أية حال إن الحط من قدرِ ما يرعب البشر هو إهانة موجّهة إلى روحهم، وطريقة لإدهاشهم؛ وبما أنه لا شيء أحط من حيوان شرس فإن أنطونيوس وقف على أربع قوائم على الطاولة وأخذ يخور كثور.

أحسّ بألم في يده؛ فقد جرحته حصاة بالمصادفة؛ ووجد نفسه أمام كوخه. حوض الصخور خال، والنجوم تشع. كل شيء صَمت.

– مرة أخرى أخطأت! لماذا هذه الأشياء؟ إنها تأتي من ارتفاعات اللحم. آه! بائس!

اندفع إلى داخل كوخه وحمل حزمة من الحبال تنتهي بأظافر معدنية، تعرّى حتى حزامه ورفع رأسه إلى السماء وقال:

– أوه، يا إلهي! اقبل توبتي، ولا تكره ضعفها. اجعلها حادة، ومديدة ومفرطة! لقد آن الأوان، إلى العمل!

وجلد نفسه جلدة قوية.

وكرّرها.

– أوه! أوه! كل ضربة تمزّق جلدي، وتقطع أطرافي! وتحرقني بصورة رهيبة! أوه! هذا ليس رهيباً! إنه يحدث! بل يبدو لي...

توقف أنطونيوس.

– هيا إذاً، أيها الجبان! هيا إذاً! جيد، جيد، على الذراعين، وعلى الظهر، وعلى الصدر، وعلى البطن، في كل مكان! اصفري أيتها السياط! عضّيني، انتزعيني! أريد أن تنبجس قطرات دمي لنصل إلى النجوم. طقطِقي عظامي، واكشفي عن أعصابي! كماشات ومنصات تعذيب ورصاص مذاب! فقد عرف الشهداء أدوات تعذيب أخرى! أليس كذلك يا أموناريا؟

ظلُّ قرنَي الشيطان ظهر من جديد.

– كان بوسعي أن أكون موثقاً إلى العمود بجانب عمودك، وجهاً لوجه، أمام ناظريك، أردّ على صرخاتك بزفراتي، وتختلط عذاباتنا، وتمتزج روحانا.

جلد نفسه بهياج.

– خذ! خذ! هذا لك أيضاً!... ولكن دغدغة تعبرني. أي عذاب! أية لذة! إنها كالقبلات. نقي عظامي يذوب، إني أموت!

ورأى أمامه ثلاثة فرسان يمتطون حُمراً وحشية، يرتدون أثواباً خضراء، يحملون سوسناً في أيديهم، ويتشابهون جميعاً بوجوههم.

التفت أنطونيوس فرأى ثلاثة فرسان آخرين متشابهين، يمتطون حُمراً مشابهة، وفي الوضع نفسه.

تراجع، عند ذلك خطت الحمر كلها دفعة واحدة خطوة إلى الأمام وحكّت خطومها بجسمه، محاولةً أن تعضّ ثيابه. أصوات تصرخ: "من هنا، من هنا! وظهرت رايات عبر شقوق الجبل مع رؤوس جِمال لها رسن من الحرير الأحمر، وبغال محملة بالأمتعة، ونساء تغطّيهن حُجُبٌ صفراء، يمتطين خيولاً بقعاء.

الحيوانات اللاهثة تتمدّد على الأرض، وعبيدها يهجمون على الأحمال، وفُرشت السجاجيد المبرقعة، وفُرشت على الأرض أشياء تلمع.

فيل أبيض مجلل بشبكة ذهبية يجري وهو يهزُّ باقة ريش النعام المعلّقة بجبهته.

على ظهره، وبين وسائد صوفية زرقاء، الساقان متقاطعتان والأجفان نصف مغمضة تهزُّ رأسها هناك امرأة ترتدي ملابس فاخرة جداً بحيث إنها ترسل أشعة من حولها. سجد الجمهور، والفيل طوى ركبتيه الأماميتين، وملكة سبأ تترك نفسها تنزلق على طول كتفه وتترجل على السجاجيد وتتقدم من القديس أنطونيوس.

فستانها من البروكار المذهّب، مقطّع بانتظام بزينة من اللآلئ والسبج والسفير يضغط خصرها بمشدٍّ ضيق ويرفع تطبيقات

ملونة تمثل الاثني عشر برجاً. ولها مزلاجان عاليان جداً، أحدها أسود نُثرت عليه نجوم فضيّة مع هلال، - والآخر أبيض مغطّى بقطرات من الذهب وفي وسطه شمس.

الأكمام الواسعة المزينة بالزمرد وبريش العصافير تدَع مجالاً لرؤية ذراعها الصغيرة المستديرة المزيّنة عند معصمها بسوار من الأبنوس، ويداها المثقلتان بالخواتم تنتهيان بأظافر حادة جداً تجعل نهايات أصابعها شبيهة بالإبر.

سلسلة من الذهب المسطح تمر تحت ذقنها، وترتفع على طول وجنتيها وتدور بشكل حلزوني حول غطاء رأسها الذي نُثر عليه طلق أزرق؛ ثم تنزل من جديد وتلامس كتفيها لتنعقد على صدرها بسرطان من الماس يُطيل لسانه ليصل إلى نهديها. ولؤلؤتان كبيرتان شقراوان تسحبان تحت أذنيها. ونهاية أجفانها ملوّنة باللون الأسود. وعلى وجنتها اليسرى خال بنيّ طبيعي؛ كانت تتنفس وهي تفتح فمها، كما لو أن المشدَّ يُزعجها.

إنها تهزُّ وهي تمشي مظلّة خضراء لها أذرع من العاج محاطة بأجراس قرمزية؛ واثنا عشر زنجي مجعدي الشعر يحملون ذيل فستانها الطويل الذي يُمسك بطرفه قرد ويرفعه بين وقت وآخر.

قالت:

– آه! أيها الناسك الجميل! أيها الناسك الجميل! إن قلبي يهبط! من فرطِ تسرّعي في المشي أصابتني يبوسة في عقبيَّ،

وكسرت أحد أظافري! كنت أُرسل رعياناً يظلّون على الجبال وأيديهم ممدودة أمام أعينهم، والصيادون يصرخون باسمك في الغابات، والجواسيس يسلكون كل الطرقات وهم يسألون كل مارٍّ: "هل رأيته؟" وفي الليل كنت أبكي ووجهي نحو الجدار. ومع مرور الوقت أحدثت دموعي ثقبين صغيرين في الفسيفساء كبركتي ماء بحر في الصخور، لأني أحبك! أوه! نعم! كثيراً!

وأمسكت لحيته وقالت:

– اضحك إذاً، أيها الناسك الجميل! اضحك إذاً! أنا مسرورة جداً، وسترى! أنا أعزف على القيثارة، وأرقص كنحلة، وأعرف جمهرة من القصص التي سأرويها لك، وكل واحدة منها ممتعة أكثر من الأخرى.

لن تتخيل الطريق الطويلة التي مشيناها. هذه هي الحُمُر الوحشية والخيول الخضراء قد نفقت من التعب!

الحُمر الوحشيّة ممددة على الأرض بلا حراك.

منذ ثلاثة أقمار كبرى، عَدَت عدواً شديداً مع حصاة بين أسنانها لقطع الريح وأذيالها مستقيمة دائماً وركبها محنية دائماً، فهي تعدو دائماً. لا يمكن أن تجد لهم شبيهاً! لقد أتوني من جدي لأمي، الإمبراطور سهاريل، بن إياخشاب بن يعرب بن كاستن. آه! لو كانوا ما زالوا أحياءً كنا سنربطهم على مفارشهم لكي نعود بسرعة إلى البيت! ولكن... ماذا؟... بمَ تفكر؟

تفحّصته ثم قالت:

– آه! عندما تصبح زوجي، سأُلبسك وأُعطرك وأنتفك.

ظلَّ أنطونيوس جامداً كوتد وشاحباً كميت.

– تبدو حزيناً؛ هل لأنك تركت كوخك؟ أنا تركت كل شيء من أجلك، - حتى الملك سليمان الذي يملك كثيراً من الحكمة وعشرين ألف عربة محاربة ولحية جميلة! لقد أتيتك بهدايا العرس، فاختر.

مشت بين صفوف العبيد والبضائع.

– هذا عطر طبريّا وهذا بخور رأس كردفان، ولادن وكافور وسيلفيوم، وهو يوضع في المرق. ويوجد في الداخل مطرزات من آشور وعاج من الغانج وأرجوان من أليزا؛ وهذه العلبة البيضاء تحوي قربة من الشاليبون، وهو خمر مخصص لملوك بلاد آشور.

يُشرَب صرفاً في قرن أحادي القرن. وهذه قلادات ومشابك وشِباك، ومظلات، ومسحوق الذهب من بعسا، وخشب أزرق من باندیو، وفرو أبيض من إيسيدونيا، وبهرمان من جزيرة بلاليسيموند، وسِواك مصنوعة من شعر التاشا، وهو حيوان ضائع يوجد تحت الأرض. وهذه الوسائد من إيماط، وهذه الحواشي للمعطف من تدمر. وعلى هذه السجادة التي من بابل، يوجد... ولكن تعال إذاً! تعال إذاً!

وسحبت القديس أنطونيوس من كمّه. قاوم، فأضافت:

– هذا القماش الرقيق الذي يطقطق تحت الأصابع كصوت الشرر، هو القطن الأصفر الشهير الذي استورده تجار باكتريان. ويلزمه ثلاثة وأربعون مترجماً في سفرتهم. سوف أجعلهم يخيطون لك منه أثواباً ستلبسها في البيت. ادفع خطّافَي العلبة المصنوعة من خشب الجمّيز وأعطني الصندوق العاجي الصغير الموجود على غارب فيلي.

وأُخرج من علبة شيءٌ مستدير، مغطى بحجاب، وحُمل صندوق صغير مليء بالديباج.

– هل تريد درع جيان بن جيان، ذلك الذي بنى الأهرامات، وهو مكوَّن من سبعة جلود تنّين موضوعة الواحد فوق الآخر ومضمومة ببراغٍ من الماس، وقد دُبغت بصفراء قاتل أبيه. وهو يمثل من جهة كل الحروب التي نشبت منذ اختراع الأسلحة، ومن ناحية أخرى الحروب التي ستنشب حتى نهاية العالم كلها. بينما يتراجع البارود عنه كطلقة من الفلين. سوف أمرّره على ذراعك، وسوف تلبسه في الصيد.

ولكن ليتك تعرف ماذا يوجد في علبتي الصغيرة هذه، اقلبها، وحاوِل أن تفتحها! لن يتمكّن أحد من ذلك. قبّلني أقُل لك!

وأمسكت القديس أنطونيوس من خدّيه فدفعها بذراعيه.

– كانت ليلةً فقدَ فيها الملك ليمان رأسه. وأخيراً عقدنا صفقة. ثم نهض وخرج بأقصى سرعة...

استدارت على نفسها.

– آه، آه! أيها الناسك، أنت لن تعرف! أنت لن تعرف!

وهزّت مظلتها فرنّت الأجراس الصغيرة كلّها.

– ومعي أشياء كثيرة أخرى! معي كنوز مدفونة في معارض يتوه فيها الإنسان كما يتوه في غابة. عندي قصور صيفية من تعريشات القصب، وقصور شتوية من الرخام الأسود. وفي الوسط بحيرات كبيرة كالبحار، وعندي جزُر مستديرة كقطع النقود، مغطّاة كلها بالصدف، وشواطئها تعزف الموسيقى مع خفق الأمواج الدافئة التي تزحف على الرمال. عبيد مطابخي يأخذون عصافير في سفني الشراعية، ويصطادون السمك في خزاناتي. لديّ نقاشون باستمرار لكي ينقشوا صورتي على الحجارة الصلبة، وسبّاكون مجتهدون يصبّون تماثيلي، وعطّارون يمزجون عصارات النباتات بالخل، ويخفقون العجينة. وخياطون يقصّون أقمشتي، وصاغة يصنعون جواهري، ومزيّنون يتفنّنون في زيناتي، ورسامون متنبّهون، يصبّون على كسوات جدراني صمغاً مغلياً، يبرّدونه بمراوح. وعندي خادمات أصنع منهن بيتاً للحريم، وخصيان أصنع منهم جيشاً. وعندي جيوش وشعوب! وفي سردابي حرس من الأقزام يحملون على ظهورهم أبواقاً من العاج.

تنهّد أنطونيوس.

– عندي عربات تجرّها غزلان، وعربات يجرّها أربعة فيلة، وأزواج من الجِمال، وخيول ذات أعراف طويلة جداً بحيث إن قوائمها تدخل بينها عندما تعدو، وقطعان من الثيران ذوات القرون العريضة جداً بحيث إنها تزيل الغابات من أمامها حين ترعى. وعندي زرافات تتنزّه في بساتيني، تمرّر رؤوسها حتى حافة سطحي، عندما أستنشق الهواء بعد العشاء.

وأجلس في قوقعة وتجرّني الدلافين، أتنزّه في المغاور وأنا أستمع إلى تساقط ماء النوازل. أذهب إلى بلاد الماس، حيث يدَعُني أصدقائي السحرة أختار أجمل الماسات؛ ثم أصعد من جديد إلى الأرض، وأعود إلى موطني.

أطلقت صفرة حادة، فحطّ طائر كبير نازل من السماء على شعرها فأنزل مساحيقه الزرقاء.

يبدو ريشه البرتقالي اللون مكوَّناً من حراشف معدنية؛ ويمثّل رأسُه الصغير، المزوّد بعُرف فضّي، وجه إنسان. له أربعة أجنحة، وقائمتا صقر، وذيل طاووس واسع، يبسطه خلفه بشكل دائري.

أمسك بمنقاره مظلة الملكة، وترنّح قليلاً قبل أن يأخذ توازنه، ثم شعّث ريشه كلّه، وظل جامداً.

- شكراً يا سيمورغ- أنكا، الذي علّمتني أين يختبئ حبيبي! شكراً! شكراً! شكراً يا رسول قلبي!

يطير كالرغبة، يدور حول العالم في النهار، ثم يعود مساءً ليحطّ عند أسفل فراشي؛ ويروي لي ما رآه، فيصف لي البحار التي مرّت من تحته، مع الأسماك والسفن، والصحارى الكبرى الخالية التي يتأمّلها من أعالي السموات، أيضاً المواسم كلها التي تُجمع في الأرياف، والنباتات التي تنمو على جدران المدن المهجورة.

لوت ذراعيها بتعب.

- أوه! ليتك تريد! ليتك تريد!... لدي سرادق على منطقة بارزة وسط برزخي، بين محيطين. هو ملبَّس بقطع الزجاج، وأرضه من حراشف السلاحف، وينفتح على الجهات الأربع. من الأعلى أرى أساطيلي تعود، والشعوب التي تصعد الهضبة وعلى أكتافها أثقال. سوف ننام على وبر أنعم من السحُب، وسوف نشرب شراباً بارداً في قشور الفواكه، وسنرى الشمس عبر زمرّدات، تعال!

ابتعد أنطونيوس فدنت منه وقالت بحدة:

- ماذا؟ لا غانية ولا لعوباً ولا عاشقة؟ ما هذا الذي يلزمك؟ أم شهوانية وسمينة، صوتها أجش، وشعرها بلون النار، ولحمها مترهّل. أنت تفضّل جسداً بارداً كجلد الأفاعي،

أم عينين سوداوين كبيرتين، أكثر سواداً من الكهوف الغامضة؟ انظر إلى عينيّ!

نظر إليها أنطونيوس رغماً عنه.

– كل أولئك اللائي التقيتَ بهن، بدءاً من فتاة التقاطع التي تغني تحت فانوسها، حتى ابنة الطبقة الراقية التي تنزع تويجات الورود من أعلى محفّتها، وكل الأشكال المرئية، وكل تخيلات رغبتك، اطلبها! أنا لستُ امرأة، أنا عالَم. ما إن أُسقِط ملابسي، حتى تكتشف على جسدي سلسلة من الأسرار!

طقطق أنطونيوس أسنانه.

– إذا وضعت إصبعك على كتفي، فستلقى هبّة نار في عروقك. وامتلاك أدنى مكان من جسدي سيملؤك فرحاً أقوى من غزو إمبراطورية. أَدْنِ شفتيك؛ فلقبلاتي طعم فاكهة تذوب في قلبك. آه! كم ستتوه تحت شعري، وتشمّ صدري، وتُدهش من أعضائي، وتُحرق من بؤبؤيّ، وأنت بين ذراعي، ستكون في إعصار...

رسم أنطونيوس إشارة الصليب.

– أنت تكرهني...! وداعاً إذاً!

ابتعدت باكية، ثم التفتت إليه وقالت:

– بكل تأكيد؟ امرأة بهذا الجمال!

ضحكت، والقرد الذي يقبع تحت فستانها، رفعها.

– ستندم أيها الناسك الجميل! ستئنّ! وستضجر! ولكني سأسخر منك. لا، لا، لا! أوه، أوه، أوه!

ذهبت ووجهها بين يديها، وهي تحجل.

مشى العبيد أمام القديس أنطونيوس، والخيول والجمال والفيل والوصيفات، والبغال التي حُمّلت من جديد. والزنوج الصغار والقرد والخيول الخضراء حاملة بيدها السوسن المكسور؛ - وابتعدت ملكة سبأ وهي تُطلق نوعاً من الفُواق المتشنج الذي يشبه النشيج أو ضحكة الاستهزاء.

3

بعد أن اختفت رأى أنطونيوس طفلاً على عتبة كوخه.

– إنه أحد خدم الملكة، فكّر.

هذا الطفل قصير كقزم، ومع ذلك فهو ضخم كاكابير، له هيئة بائسة؛ شعر أبيض يغطي رأسه الفائق الضخامة؛ وهو يرتجف تحت ثوبه الرقيق، حاملاً بيده لفافة من ورق البردي.

سقط عليه نور القمر الذي عبرته غيمة. رآه أنطونيوس من بعيد وخاف منه.

– من أنت؟

ردَّ الطفل:

– أنا تلميذك السابق هيلاريون!

أنطونيوس: أنت تكذب! فهيلاريون يسكن منذ بضع سنوات في فلسطين.

هيلاريون:

– لقد عدت منها، وها أنا ذا.

دنا منه أنطونيوس وتأمله. ومع ذلك فقد كان وجهه لامعا كالفجر وبريئاً وفرحاً، أما هذا الوجه فهو كالح عجوز.

هيلاريون:

– أشغال طويلة أتعبتني!

أنطونيوس:

– صوتك مختلف، ففيه نبرة تجمّدك.

هيلاريون:

– ذلك لأني أتغذّى من الأشياء المرّة!

أنطونيوس:

– وما هذا الشعر الأبيض؟

هيلاريون:

– لقد أصابتني هموم كثيرة!

حدّث أنطونيوس نفسه قائلاً: هل هذا ممكن...

هيلاريون:

– لم أكن بعيداً كما كنت تظن؛ فالناسك بولس زارك هذه السنة في شهر شيفار. ومنذ عشرين يوماً بالضبط جلب لك البدو خبزاً، وقلت أول أمس لبحّار أن يجلب لك ثلاثة أزاميل.

أنطونيوس:

– هو يعرف كل شيء!

هيلاريون:

– بل اعلم أني لم أفارقك قطُّ. ولكنك تُمضي ساعات طويلة دون أن تتنبّه إلي.

أنطونيوس:

– كيف هذا؟ صحيح أنَّ رأسي مربك جداً! وهذه الليلة بصورة خاصة...

هيلاريون:

– كل الخطايا الكبرى أتت ولكن مكائدها الصغيرة تتكسر أمام قدّيس مثلك!

أنطونيوس:

– أوه! لا!... لا! في كل دقيقة أنا أنهار! أنا لست من أولئك الذين يملكون دائماً نفساً جريئة وروحاً صامدة، مثل أتاناز العظيم، على سبيل المثال.

هيلاريون:

– لقد أُمر بصورة غير شرعية من سبعة أساقفة!

أنطونيوس:

– لا يهم! إذا كانت فضيلته...

هيلاريون:

– رجل متكبّر وقاسٍ يعيش في المكائد دائماً، وأخيراً نُفي كمحتكر.

أنطونيوس:

– هراء!

هيلاريون:

– لن تُنكر أنه أراد أن يُفسد أوستات خازن الهبات! أليس كذلك؟

أنطونيوس:

– إنهم يؤكدون هذا، أنا أوافقك.

هيلاريون:

– لقد أحرق بيت أرسين انتقاماً.

أنطونيوس:

– للأسف!

هيلاريون:

– وقال في مجمع نيقيا، حين تكلّم عن يسوع: "رجل الرب".

أنطونيوس:

– آه! هذا كفر!

هيلاريون:

– بالإضافة إلى ذلك هو محدود بحيث إنه يعترف أنه لا يفهم شيئاً في طبيعة الكلمة.

ابتسم أنطونيوس فرحاً وقال:

- في الواقع هو لا يملك الذكاء الرفيع... جداً.

هيلاريون:

- لو وِضعت في مكانه لكان ذلك سعادة كبرى لك ولأخوتك، فالحياة بعيداً عن الآخرين سيئة.

أنطونيوس:

- بالعكس! بما أن الإنسان روح، يجب عليه أن يعتزل الأمور الفانية، فكل فعل يحطُّ من قدره. وأنا أريد ألا أقف على الأرض، حتى بأخمص قدميَّ!

هيلاريون:

- خبيث يغوص في الوحدة لكي يسلّم نفسه بشكل أفضل لفيض شهواته! أنت تحرم نفسك من اللحم والخمر والحمّامات والعبيد والمفاخر؛ ولكن كم تترك خيالك يقدّم لك موائد وعطوراً ونساء عاريات وجماهيرَ مصفقة! عفّتك ليست سوى فساد أدق، وهذا الاحتقار للعالم وعجز كرهك له؛ هذا ما يجعل أمثالك كئيبين، أو ربما لأنهم يشكّون. فامتلاك الحقيقة هو لهب الفرح. هل كان يسوع حزيناً؟ كان يمشي محاطاً بالأصدقاء، ويرتاح في ظل الزيتونة، ويدخل إلى بيت جابي الضرائب ويضاعف الأكواب، ويسامح الزانية ويشفي من كل الآلام. أنت لا تُشفق إلا على بؤسك. كذلك كما لو أن ندماً يهزك وجنوناً رهيباً؛ حتى إنك ترفض مداعبة كلب أو ابتسامة طفل.

انفجر أنطونيوس باكياً وقال:

– كفى! كفى! إنك تضعضع قلبي!

هيلاريون:

– هُزَّ الدودة عن ثيابك! وانهض من قذارتك! ربك ليس مولوش يطلب لحماً كقربان!

أنطونيوس:

– ومع ذلك فإن الألم مبارك. والكروبيون ينحنون لتلقّي دم المجاهرين بإيمانهم.

هيلاريون:

– إذاً أبدِ إعجابك بالجبليين! فهم يتجاوزون الآخرين جميعاً.

أنطونيوس:

– ولكن هذه هي حقيقة المذهب الذي يصنع الشهادة!

هيلاريون:

– كيف يمكن إثبات امتيازه ما دام يشهد مع الخطأ أيضاً؟

أنطونيوس:

– هل ستصمت أيتها الأفعى!

هيلاريون:

– قد لا يكون هذا صعباً إلى هذا الحد. حض الأصدقاء، ومتعة شتم الشعب واليمين الذي حُلف، دوار معيّن، ألف ظرف يساعدهم.

ابتعد أنطونيوس عن هيلاريون، لكن هذا تبعه.

– على أية حال هذه الطريقة في الموت تسبب فوضى كبرى. دينيس وسيبريانوس وغريغوريوس تخلّصوا منها. وبطرس السكندري أدانها، ومجمع ألبيرا...

سدّ أنطونيوس أذنيه:

– لم أعد أسمع!

رفع هيلاريون صوته:

– ها أنت تسقط من جديد في خطيئتك المعتادة؛ الكسل. إن الجهل هو زبد التكبّر. لقد قيل: "تشكّلت قناعتي، فلماذا أناقش؟" ما يُحتقر أصحاب المذاهب والفلاسفة والتراث وحتى نص الناموس الذي يجهلونه. هل تعتقد أنك تُمسك الحكمة بيدك؟

أنطونيوس:

– ما أزال أسمعه! كلامه الصاخب يملأ أُذني.

هيلاريون:

– الجهود من أجل فهم الله أعلى من عذاباتك. ليس لدينا استحقاق إلا لتعطشنا إلى الحقيقة. الدين بمفرده لا يفسر كل شيء؛ وحل المشكلات التي تُنكرها يمكن أن يجعله صعب المنال وأكثر علوّاً. إذاً من أجل خلاصه يجب أن يتواصل مع أخوته، - أو الكنيسة، مجموع المؤمنين لا يشكّل إلا كلمة،

والاستماع إلى كل الأسباب وعدم إغفال شيء أو أحد. الساحر بلعام والشاعر أسخيلوس وأغنية كوميس أعلنوا عن المنقذ. ودينيس السكندري تلقّى من السماء أمراً لقراءة الكتب كلها. والقدّيس كليمان يأمرنا بقراءة الثقافة اليونانية. وقد آمن هيرماس بإيحاء من امرأة كان قد أحبها.

أنطونيوس:

– أية هيئة من السلطة! يبدو لي أنك تكبر...

في الواقع، أخذت قامة هيلاريون تطول شيئاً فشيئاً، فأغمض أنطونيوس عينيه كي لا يعود بمقدوره رؤيته.

هيلاريون:

– اطمئن أيها الناسك الطيب. لنجلس هنا على هذا الحجر الكبير، كما كنا نفعل في الماضي، عندما كنت أحيّيك عند أول نور من النهار، وأنا أُناديك "نجمة الصبح المضيئة"؛ وكنت تبدأ بتثقيفي مباشرة. وتثقيفي لم ينته؛ فها هو القمر ينيرنا كفاية، وأنا أستمع إليك.

أخرج قلماً من حزامه، وجلس أرضاً مقاطعاً ساقيه، أمسك لفافة البردي، ورفع رأسه نحو القديس أنطونيوس الذي كان جالساً بجانبه، وقد ظلّ حانياً رأسه.

أضاف هيلاريون بعد لحظة صمت:

– ألم يؤكّد لنا كلام الله بالمعجزات؟ ومع ذلك فإن سحَرة فرعون كانوا يأتون بها، وبعض المخادعين الآخرين يمكنهم أن

يأتوا بها. فما هي المعجزة إذاً؟ هي حدث يبدو لنا خارقاً للطبيعة. ولكن هل نعرف قوته كلّها، وأن شيئاً لم يكن يدهشنا عادة ينتج منه أننا كنا نفهمه؟

أنطونيوس:

- لا يهم! يجب الإيمان بالكتابات المقدسة.

هيلاريون:

- القديس بولس، وأوريجين وآخرون كثر، لم يفهموها حرفياً، ولكن إذا فسرناها مجازياً، تصبح حصة عدد قليل، وبديهية الحقيقة تختفي، فما العمل؟

أنطونيوس:

- اللجوء إلى الكنيسة.

هيلاريون:

- إذاً هل الكتابات المقدسة بلا فائدة؟

أنطونيوس:

- لا! على الرغم من أن العهد القديم - أنا أعترف - يحوي نقاطاً غامضة... إلا أن العهد الجديد يتمتّع بنور نقي.

هيلاريون:

- ومع ذلك فإن الملاك المبشِّر في إنجيل متى، ظهر ليوسف، في حين أنه في إنجيل لوقا، ظهر لمريم. ومسحُ يسوع على يد امرأة قد تمّ، بحسب الإنجيل الأول في بداية الحياة

العامة، وبحسب الأناجيل الثلاثة الأخرى، قبيل وفاته بعدة أيام.. والشراب الذي قُدّم له على الصليب هو في إنجيل متى خل مع العلقم، وفي إنجيل مرقس خل ومرّة. وبحسب إنجيلي لوقا ومرقس، يجب ألّا يحمل الرسل مالاً ولا كيساً، ولا ينتعلوا حتى الصندل، وفي إنجيل مرقس، بالعكس، لقد منعهم يسوع من أن ينتعلوا شيئاً إن لم يكن الصندل. فقد ضعت.

أنطونيوس بدهشة:

– بالفعل... بالفعل.

هيلاريون:

– وحين لامس يسوع المبسورة قال: "من لمسني؟" إذاً أيعقل أنه لم يكن يعرف من لمسه؟ هذا يناقض العلم الكلي عند يسوع. لو كان القبر مراقَباً من الحرّاس، لما احتاجت النسوة إلى من يساعدهن على رفع الحجر عن هذا القبر. إذاً إما لم يكن هناك حرّاس، أو أن النسوة لم يكنّ موجودات. في عماوس، تناول الطعام مع تلاميذه، وجعلهم يتلمّسون جراحه. إذن لقد كان جسماً بشرياً مادياً، يمكن قياس وزنه، ومع ذلك كان يخترق الجدران. هل هذا ممكن؟

أنطونيوس:

– يلزمني وقت طويل لكي أردّ عليك.

هيلاريون:

– لماذا استقبل الروح القدس على الرغم من أنه الابن؟ وما كانت حاجته إلى العماد إذا كان هو الكلمة؟ وكيف يمكن للشيطان أن يغويه، وهو الرب؟

هل خطرت ببالك هذه الأفكار يوماً؟

أنطونيوس:

– نعم! ... غالباً! نائمة أو هائجة فهي في وعيي. أسحقها، وهي تولد من جديد، تخنقني، وأعتقد أحياناً أني ملعون.

هيلاريون:

– إذاً ما فائدة خدمتك للرب؟

أنطونيوس:

– أنا بحاجة دائمة لعبادته.

وبعد صمت طويل، أضاف هيلاريون:

– ولكن خارج المعتقد، حرية البحث كلها مباحة لنا. هل ترغب في معرفة رتب الملائكة، وفضيلة الأرقام، وسبب البذور والمسوخ؟

أنطونيوس:

– نعم! نعم! إن فكري ينتفض ليخرج من سجنه. ويبدو لي أني إذا استجمعتُ قواي سأتمكّن من ذلك. وحتى أحياناً، خلال ومضة أجد نفسي معلّقاً، ثم أسقط.

هيلاريون:

- السر الذي تريد حفظه محروس من الحكماء. إنهم يعيشون في بلد بعيد، جالسين تحت أشجار عملاقة، يلبسون ثياباً بيضاء وهم هادئون كالرب. يغذّيهم هواء حار؛ وتحيط بهم فهود على العشب. وخرير مياه الينابيع وصهيل أحاديات القرن يمتزج مع أصواتهم. ستستمع إليهم، ووجه المجهول سينكشف لك.

أنطونيوس متنهّداً:

- الطريق طويلة، وأنا عجوز!

هيلاريون:

- أوه! أوه! الرجال العلماء ليسوا قلّة! ومنهم من هم على مقربة منك. هنا.

- لندخل!

4

ورأى أنطونيوس أمامه كنيسة ضخمة.

النور المنعكس من صدرها، رائعاً، كشمس متعددة الألوان، أضاء الرؤوس التي لا تعد ولا تُحصى للجمهور الذي يملأ الصحن ويتدفّق بين الأعمدة، نحو الجانبين، - حيث تُرى حجرات خشبية، ومذابح، وأسرّة، وسلاسل من الحجارة الصغيرة الزرقاء، ومجموعات نجوم مرسومة على الجدران.

بين الجمهور تقف مجموعات هنا وهناك. رجال يقفون على منصات، يخطبون وكل منهم يرفع إصبعه، وآخرون يصلّون وأذرعهم على شكل صليب، راقدين أرضاً ينشدون الأناشيد، أو يشربون النبيذ؛ وحول طاولة مؤمنون يتناولون الطعام على موائد، وشهداء يرفعون الضمادات عن أطرافهم ليُظهِروا جراحاتهم؛ وعجائز يستندون إلى عصيّ، يروون رحلاتهم.

منهم من بلاد الجرمان، والتراس والغال، وسيثيا والهند، - ولديهم ثلج على لحاهم، وريش في شعورهم، وأشواك في طيات ملابسهم، وينتعلون صنادلِ سوّدها الغبار، وجلودهم صوّحتها الشمس. الملابس كلّها تختلط، المعاطف الأرجوانية مع الأثواب

الكتانية، وقفطانات مطرّزة مع سترات مصنوعة من الوبر، وطاقيات بحارة مع التيجان الأسقفية. عيونهم تتحرّك بصورة غير عادية. لهم هيئة جلادين أو هيئة خصيان.

تقدّم هيلاريون إلى وسطهم. فحيّوه جميعا. أنطونيوس يراقبهم وهو يحشر جسمه بكتفه. لاحظ وجود كثير من النساء، وكثيرات منهن يرتدين ملابس الرجال، وشعورهن حليقة. فخاف منهن.

هيلاريون:

– هؤلاء مسيحيات حوّلن أديان أزواجهن. على أية حال النساء دائماً مع يسوع، حتى عبَدة الأوثان، والشاهدة بروكولا، زوجة بيلاطس وبوبيه عشيقة نيرون. لا ترتجف، تقدّم.

ويصل آخرون باستمرار.

يتكاثرون، يتضاعفون، خفيفون كالظلال، وهم يصدرون جلبة كبرى حيث تمتزج عواءات الغضب مع صرخات الحب، والأناشيد مع الشتائم.

سأل أنطونيوس بصوت خافت:

– ماذا يريدون؟

هيلاريون:

– الرب قال: "سيكون لدي أشياء كثيرة لأكلّمكم بها"، وهم يملكون هذه الأشياء.

ودفعه نحو عرش ذهبي له خمس درجات، يجلس عليه النبي مانيس محاطاً بخمسة وتسعين تلميذاً، كلّهم ممسوحون بالزيت، نحيلون وشاحبون جداً، - إنه جميل كملاك، جامد كتمثال، يرتدي ثوباً هندياً، والبهرمان على شعره المشعّث، يحمل في يده اليسرى كتاباً يحوي صوراً ملوّنة، وتحت يمناه كرة. الصور تمثل المخلوقات التي تغفو في العماء. انحنى أنطونيوس لكي يراها، ثم دوّر مانيس الكرة، وضبط كلامه على صوت قيثارة يصدر عنها أصوات كريستالية.

– الأرض السماوية في الطرف العلوي، والأرض الفانية في الطرف السفلي. يسندها ملاكان: السبلانديتنانس والأوموفور ذو الوجوه الستة.

وفي قمة السماء الأعلى يقف الإله بوجه عديم المشاعر، وتحته يوجد ابن الرب وأمير الظلمات.

بما أن الظلمات قد تقدّمت إلى وسط المملكة، أخرج الرب من ماهيته فضيلة أنتجت الإنسان الأول؛ وأحاطه بالعناصر الخمسة. ولكن شياطين الظلمات سرقوا جزءاً منها، وهذا الجزء هو الروح.

لا توجد إلا روح واحدة منتشرة كونياً، كما النهر منتشراً في عدة أذرع. هي التي تنفخ في الريح، وتئزّ في الرخام الذي يُنشَر،

وتعوي في صوت البحر: وتبكي دموعاً من الحليب عندما تُنتزع ورقة تين.

الأرواح الخارجة من هذا العالم، تهاجر نحو النجوم التي هي كائنات حية.

أخذ أنطونيوس يضحك، ثم قال:

– آه! آه! يا له من خيال سخيف!

سأل أحد الرجال، بلا لحية، وبهيئة صارمة:

– فيم؟

كان أنطونيوس سيرد لكن هيلاريون همس له بأن هذا الرجل هو أوريجين الواسع.

وأضاف مانيس:

– في البداية تتوقّف على القمر، حيث تتطهّر، وبعد ذلك تصعد إلى الشمس.

قال أنطونيوس بهدوء:

– لا أعرف شيئاً... يمنعنا من الإيمان بهذا.

مانيس:

– الغاية من كل مخلوق هي الخلاص من الشعاع السماوي المسجون في المادة. وهو يخرج منها بوساطة العطور، والتوابل، ونكهة النبيذ المطبوخ، والأشياء الخفيفة التي تشبه أفكاراً. ولكن أفعال الحياة تُبقيها فيها. القاتل يولد من جديد

في جسم سيليف، ومن يقتل حيواناً يصبح هذا الحيوان، وإذا غرستَ كرمة أصبحت نسغ أغصانها. الغذاء يمتص منه. إذاً صُمْ.

هيلاريون:

– إنهم متقشّفون، كما ترى.

مانيس:

– يوجد كثير منها في اللحم، وتكون أقل من ذلك في الأعشاب. على أية حال، الأنقياء، وبفضل استحقاقاتهم، يجرّدون النباتات من هذا الجزء المضيء، ويصعد من جديد إلى موطنه. الحيوانات، بوساطة التوالد يحتفظون بها في جلودهم. إذاً اهربوا من النساء!

هيلاريون:

– تأمّل عفّتهم.

مانيس:

– أو بالأحرى، احرصوا على ألّا يكنّ خصبات؛ - من الأفضل للروح أن تسقط على الأرض من أن تتعب في العوائق الجسدية.

أنطونيوس:

– آه! يا للبشاعة!

هيلاريون:

– ما أهمية الإسفاف؟ فقد جعلت الكنيسة من الزواج عملاً مقدساً.

قال ساتورنان وهو يرتدي ملابس سورية:

– إنه ينشر نظاماً للأشياء المنحوسة! لكي يعاقب الأب الملائكة المتمرّدين، يأمرهم بخلق العالم. المسيح أتى من أجل أن يكون رب اليهود الذي كان أحد هذه الملائكة....

أنطونيوس:

– ملاكاً! هو! الخالق؟!

سيردون:

– ألم يُرِد أن يقتل موسى، ويخدع أنبياءه؟ ألم يُغوِ الشعوب، وينشر الكذب وعبادة الأوثان؟

مارسيون:

– بكل تأكيد، الخالق، ليس الرب الحقيقي!

القديس كليمان الإسكندري:

– المادة خالدة.

باردیزانیس على شكل مجوسي من بابل:

– لقد تشكّلت من الأرواح الكوكبية السبع.

الهرنيون:

– الملائكة هي التي صنعت الأرواح.

البريسيليانيون:

– الشيطان هو الذي صنع العالم.

رمى أنطونيوس نفسه إلى الخلف وصاح:

– يا للرعب!

قال هيلاريون وهو يسنده:

– أنت تيئس بأقصى سرعة! وأنت تسيء فهم معتقدهم! هذا واحد منهم كان قد تلقّى علمه من تيوضاس، صديق القديس بولس، فاستمع إليه!

وبإشارة من هيلاريون.

فالانتان بقفطان فضي، صوته صافر ورأسه مدبّب:

– العالم من صنع إله في حالة هذيان.

أنطونيوس خفض رأسه.

– من فعل إله في حالة هذيان!...

ثم سأل بعد صمت طويل:

– كيف هذا؟

فالانتان:

– الإيونات هي أكمل الكائنات، الهاوية، ترتاح في كنف العمق مع الفكر، ومن اتحادهما يخرج الذكاء الذي يتخذ الحقيقة رفيقةً له.

الذكاء والحقيقية أنتجا الكلمة والحياة، اللتين أنتجتا بدورهما الإنسان والكنيسة، وهذا يساوي ثمانية إيونات.

وعدّ على أصابعه:

– الكلمة والحقيقة تنتجان عشرة أيونات أخرى، أي خمسة أزواج. الإنسان والكنيسة أنتجا اثني عشر آخرين، من

بينها باراكليه والإيمان، الرجاء والإحسان، الكمال والحكمة، صوفيا.

مجموع هذه الثلاثين أيوناً تشكّل البليروم، أو كونية الله. وهكذا كصدى الصوت الذي يبتعد، وانتشار العطر الذي يتبخر. كنيران الشمس الغاربة، القدرات الفائضة عن المبدأ تمضي وهي متخامدة إلى الأبد.

لكن الحكمة التي ترغب في معرفة الله، تندفع خارج البليروم؛ وعندئذ تصنع الكلمة زوجاً آخر، المسيح والروح القدس، التي ربطت بين جميع الأيونات؛ وكلها معاً شكلت يسوع، زهرة البليروم.

ومع ذلك فإن جهد الحكمة لكي تهرب قد ترك في الفراغ صورة لها، جوهراً سيئاً، آشاراموت. وقد أشفق عليها المخلّص، وخلّصها من الأهواء؛ ومن ابتسامة آشاراموت المخلّصة وُلِد النور؛ صنعت دموعها المياه، وحزنها ولّد المادة السوداء.

من آشاراموت خرج خالق العوالم والسماوات والشيطان. وهي تسكن أسفل من البليروم حتى دون أن يدرك ذلك بحيث إنه يظن أنه الله الحقيقي، ويكرر من فم رسله: "لا إله إلا أنا!" ثم صنع الإنسان ورمى في روحه البذرة اللامادية، التي كانت الكنيسة، انعكاس الكنيسة الأخرى الموضوعة في البليروم.

وحين يصل آشاراموت ذات يوم إلى المنطقة الأعلى ينضمّ إلى المخلّص؛ النار المختبئة في العالم سوف تفني كلّ مادة وتفترس

نفسها، وبعد أن يصبح البشر أرواحاً نقية، سيتزوجون من الملائكة!

أوريجين:

– عندئذ سوف يُقهَر الشيطان، وسيبدأ عهد الله!

كبح أنطونيوس صرخة، وسرعان ما أمسك به بازيليد من مرفقه وقال له:

– الكائن الأعلى مع الفيضانات اللامتناهية يُدعى أبراكساس، والمخلّص مع كل فضائله كولاكو، بطريقة أخرى سطر على سطر واستقامة على استقامة.

نحصل على القوة من كولاكو بمساعدة بعض الكلمات المسجّلة على هذه الخلقدونية من أجل تسهيل الحفظ.

ويبيّن على رقبته حجراً صغيراً نُقشت عليه أسطر غريبة.

– عندئذٍ سوف تُنقل إلى اللامرئي؛ وبما أنك ستكون فوق القانون، فإنك سوف تحتقر كل شيء حتى الفضيلة!

ونحن الآخرين، الأنقياء، يجب أن نهرب من الألم، فداء لكولاكو.

أنطونيوس:

– ماذا؟ والصليب؟

أجابه الأخيسايتيون وهم يرتدون الياقوت:

– الحزن والدناءة والإدانة والظلم لآبائي مُحيت، بفضل المهمة التي أتت!

يمكن نكران المسيح السفلي، المسيح-الإنسان؛ ولكن يجب عبادة المسيح الآخر، الذي تفتّح في شخصه تحت جناح اليمامة.

احترموا الزواج! فالروح القدس مؤنث!

اختفى هيلاريون؛ وأنطوان الذي دفعه الجمهور وصل إلى الأمام.

قال الكاربوكارسيون الممددون مع نساء على وسائد حمراء:

– قبل أن تدخل في الواحد، ستمر بسلسلة من الشروط والأفعال. ولكي تنعتق من الظلمات أنجز منذ الآن أعمالها! الزوج سيقول للزوجة: "أحسني لأخيك"، وسوف تقبّلك.

قال النيكولايتيون المجتمعون حول طبق يتصاعد منه البخار:

– هذا لحم مقدّم للأوثان؛ كُلْ منه! الردّة مسموحة عندما يكون القلب نقياً. املأ جسدك بما يتطلبه. حاول أن تبيده من فرط الفسق! برونيكوس؛ أمّ السماء تمرّغت في الأعمال الدنيئة.

وقال له الماركوسيون وهم يضعون خواتم ذهبية وتسيل علهم الأطياب:

– ادخل إلى عندنا لكي تتحد مع الروح! ادخل إلى عندنا لتشرب الخلود!

وأراه أحدهم، خلف سجّادة جسم رجل ينتهي برأس حمار. هذا يمثّل ساباووت، والد الشيطان.

وكعلامة كراهية يبصق عليه.

وكشف آخر عن سرير منخفض جداً، نُثرت عليه الأزهار وهو يقول إن الأعراس الروحية سوف تُنجز.

ويحمل ثالثٌ كوباً زجاجياً ويقوم بدعاء يظهر فيه دم:

– آه! هذا هو! هذا هو دم المسيح!

ابتعد أنطونيوس. ولكن رُشَّ بالماء المنتشل من أحد الأحواض.

انقضَّ عليه الهلفيديون مطأطئي الرؤوس وهم يغمغمون:

– الإنسان الذي يولد بالعماد لا يمكن أن يخطئ!

ثم مرَّ قرب نار كبيرة حيث يتدفأ الآدميون العراة تماماً لكي يقلدوا نقاء الجنة؛ واصطدم بالميساليين المنبطحين على الأرض، نصف نائمين، حمقى:

– أوه! اسحقنا إذا شئت فلن نتحرك! العمل خطيئة، وكل اهتمام سيئ!

وخلف هؤلاء، ينتشر المنحطون الباترنيون، رجالاً ونساء وأطفالاً، بفوضى عارمة على كومة من القمامة، رفعوا وجوههم القميئة التي أتلفها الخمر: الأجزاء السفلى من الجسد التي صنعها الشيطان تنتمي إليه. قالوا:

– فلنشرب ولنأكل ولنمارس الزنا!

وقال له أيتيوس:

– الجرائم حاجات أدنى من نظر الله!

ولكن فجأة قفز من بينهم رجل يرتدي معطفاً قرطاجياً، وبيده علبة من السياط، وهو يضرب ذات اليمين وذات الشمال بعنف وقال:

– آه! أيها المخادعون والأفّاقون والسيمونيون والهراطقة والشياطين! دودة المدارس، وحثالة الجحيم! هذا، مارسيون بحار من سينوب قد صدر عليه الحرم بسبب سفاح القربى؛ وطُرد كاربوكراس كساحر؛ وأيبيوس سرق خليلته، ونيكولا يُعهّر زوجته؛ ومانيس الذي سمّى نفسه بوذا ويسمى كوبريكوس سُلخ حياً بعود قصب مدبب بحيث إن جلده المدبوغ يتأرجح على أبواب كليسيبون!

تعرّف أنطونيوس إلى ترتوليان فاندفع لكي ينضم إليه وقال:

– أيها المعلّم! إليَّ! إليَّ!

أضاف ترتوليان:

– اكسروا الصور! حجّبوا العذارى! صلوا وصوموا وابكوا وعذبوا أنفسكم! لا فلسفة! ولا كتب! بعد يسوع، العلم بلا فائدة.

فرَّ الجميع! ورأى أنطونيوس امرأة جالسة على حجر أبيض بدلاً من ترتوليان. إنها تشهق مسندة رأسها إلى أحد الأعمدة وشعرها يتدلى، وجسدها منهار في ثوب بني طويل فضفاض، ثم وجدا نفسيهما أحدهما بجانب الآخر بعيداً عن الجمهور؛ وحلَّ صمت وهدوء غير عادي، كما في الغابات، عندما تقف العاصفة وتكف الأوراق عن الحركة.

هذه المرأة جميلة جداً، ومع ذلك يعلوها شحوب القبر. نظر كل منهما إلى الآخر؛ وأرسلت عيونهما ما يشبه موجة من الأفكار، خلف شيء قديم مضطرب وعميق.

وأخيراً بدأت بريسيلا الكلام:

– كنت في الغرفة الأخيرة من الحمّامات، وكنت نائمة مع ضجيج الشوارع. وفجأة سمعت هتافات. كانوا يصرخون: "هذا ساحر! هذا هو الشيطان!" وتوقف الجمهور أمام بيتنا، مقابل معبد إسكولاب. ارتفعت بمعصميَّ إلى مستوى النافذة. على مقدمة المعبد كان هناك رجل يحمل قيداً حديدياً في رقبته. وكان يأخذ جمراً متقداً ويضعه على صدره بخطوط عريضة وهو ينادي "يسوع! يسوع!" قال الجمهور: "هذا غير مسموح! فلنرجمْه!" وهو تابعَ. كانت تلك أشياء غير مسبوقة مثيرة للغضب. أزهار واسعة كالشمس تدور أمام عيني، وكنت أسمع في الفضاء هارباً ذهبياً يهتزُّ. ثم خيّم الظلام. تركت ذراعاي القضبان وانهار جسدي وحين أخذني إلى بيته...

أنطونيوس:

– عمّن تتكلمين؟

بريسيلا:

– عن مونتانوس!

أنطونيوس:

– ولكن مونتانوس مات.

بريسيلا:

– هذا غير صحيح.

وصاح صوت:

– لا، مونتانوس لم يمت!

التفت أنطونيوس فرأى بجانبه، في الطرف الآخر من المقعد امرأة ثانية جالسة؛ شقراء، وأكثر شحوباً، مع انتفاخات تحت أجفانها كما لو أنها قد بكت طويلاً.

ودون أن يسألها قالت ماكسيميلا:

– كنّا عائدتين من تارس عبر الجبال حين رأينا في طريق فرعي رجلاً يقف تحت شجرة تين. صرخ من بعيد: "قفا!" وأسرع إلينا وهو يشتمنا، وهُرع العبيد. انفجر ضاحكاً. والخيول اشرأبّت. وأخذت كلاب الحراسة كلّها تنبح.

كان واقفاً والعرق يسيل على وجهه، ومعطفه يخفق مع الرياح. وإذ نادانا باسمينا، لامنا على غرور أعمالنا، وعلى عار

جسدينا؛ ورفع القبضة من جهة الجِمال، بسبب الأجراس الصغيرة الفضية التي تحملها تحت أفكاكها.

صب غضبُه الرعب في أحشائي، وبدا وكأن شهوة قد دغدغتني، فأسكرتني.

في البداية اقترب العبيد: "أيها السيد، قالوا، حيواناتنا تعبة". ثم قالت النساء: "نحن خائفات"، وذهب العبيد. ثم أخذ الأطفال يبكون: "نحن جائعون!" وبما أن أحداً لم يردّ على النساء، فقد اختفين.

هو كان يتكلّم. شعرتُ بشخصٍ بجانبي؟ كان زوجي؛ كنتُ أستمع إلى الآخر. كان يجرّر نفسه بين الحجارة، وهو يصيح: "هل تهجرينني؟" فأجبته: "نعم، اغرب عن وجهي!"- لكي أرافق مونتانوس.

أنطونيوس:

- خصيّ!

بريسيلا:

- آه! هذا يثير استغرابك، أيها القلب الفظ! ومع ذلك فإن المجدلية وحنة ومرثا وسوزان لم يدخلن إلى مخدع المخلّص. الأرواح، أفضل من الأجساد، يمكنها أن تتعانق في الهذيان. وللحفاظ على أوستولي دون أي عقاب، بتر الأسقف ليونس عضوه، محبّاً الحب أكثر من رجولته. ثم إن الذنب ليس ذنبي؛

فإن روحاً قد أرغمتني على ذلك؛ سوتاس لم يستطع شفائي. مع أنه قاس! لا بهم! فأنا آخر النبيّات؛ وبعدي ستأتي نهاية العالم.

ماكسيميلا:

– لقد غمرني بعطاياه. على أية حال، ما من امرأة تحبّه مثلي، وليست محبوبة منه أكثر مني.

بريسيلا:

– أنت تكذبين! أنا!

ماكسيميلا:

– لا، أنا!

واقتتلتا. وبين أكتافهما ظهر رأس زنجي.

قال مونتانوس وهو مغطّى بمعطف أسود مغلق بعظمي ميت:

– اهدءا يا يمامتيَّ! أيتها العاجزتان عن السعادة الأرضية، بهذا الاتحاد نحن في الكمال الروحي. بعد عهد الأب، عهد الابن؛ وأنا أفتتح العهد الثالث، عهد باراكليه. لقد أتاني نوره طوال الأربعين ليلة التي أضاءت فيها أورشليم السماوية في القبة الزرقاء، فوق بيتي في بيبوزا.

آه! كم تصرخان من القلق عندما تجلدكما السياط! وكم تتبدى أعضاؤكما المتألمة لاستعاري! كم تتعبان على صدري

بحب غير قابل للتحقيق! إنه قويٌّ جداً بحيث إنه كشف لكما عوالمي، ويمكنكما الآن أن تلمحا الأرواح بعيونكما.

أصدر أنطونيوس حركة استغراب.

قال ترتوليان بعد أن عاد إلى جانب مونتانوس:

- بكل تأكيد، لأن للروح جسداً، -والتي ليس لها جسد لا توجد.

مونتانوس:

- لكي أجعلها أدق، أسست عذابات عديدة، ثلاث فترات صوم في السنة، ولكل ليلة صلوات يغلق فيها الفم، -خشية أن يُكمِد النفسُ الخارج التفكيرَ. يجب الامتناع عن الزواج الثاني، أو بالأحرى عن كل زواج! فلقد ارتكبت الملائكة الخطيئة مع النساء.

قال الأركونتيون بكؤوس من الهُلب:

- قال المخلّص: "لقد أتيت لتدمير عمل المرأة."

وقال التاتنانيون بكؤوس من الخيزران:

- هي شجرة الشر! ثياب الجلد هي جسدنا.

والتقى أنطونيوس وهو ما يزال يمشي في الجهة نفسها بالفاليسيين ممددين على الأرض مع لوحات حمراء أسفل بطونهم تحت أثوابهم.

قدّموا له سكيناً وقالوا:

- افعل مثل أوريجين ومثلنا! هل تخاف الألم، أيها الجبان؟ هل حب جسدك هو الذي يمنعك، أيها المنافق؟

وبينما هو ينظر إليهم يتخبطون ممددين على ظهورهم في بركة من دمائهم، مرَّ من أمامه القايينيون وشعورهم مربوطة بأفعى، يصرخون في أذنه:

- المجد لقايين! المجد لسدّوم! المجد ليهوذا! قايين هو جنس الأقوياء. سدّوم أرعبت الأرض بعقابها؛ وبواسطة يهوذا أنقذ الرب العالم! نعم، يهوذا! لولاه لما كان موت ولا افتداء!

اختفوا تحت عصبة السيركونسيليين الذين يرتدون جلود ذئاب متوَّجين بالأشواك ويضعون أقنعة حديدية:

- اسحق الثمرة! عكّر النبع! أغرق الطفل! انهب الغني الذي يجد نفسه سعيداً، ويأكل كثيراً! اضرب الفقير الذي يحسد كفليّة الحمار، وطعام الكلب، وعش العصفور، والذي يأسى لأن الآخرين ليسوا فقراء مثله.

نحن - القدّيسين -، لكي نسرّع نهاية العالم، نسمم ونُحرق ونذبح!

- الخلاص ليس إلا في الشهادة. نحن نتعاطى الشهادة. نحن ننتزع جلد رؤوسنا بكمّاشات، ونمدُّ أطرافنا تحت العربات، ونرمي أنفسنا في فم الأفران! نكره العماد! نكره سر القربان المقدّس! نكره الزواج! اللعنة الكونية!

إذاً في كل الكنيسة هناك مضاعفة للغضب.

الأوديون يطلقون السهام على الشيطان؛ والكوليريديون يرمون إلى السقف حجباً زرقاء؛ والآسيتيون يسجدون أمام قربة ماء؛ والمارسيونيون يعمّدون ميتاً بالزيت. قرب آبل امرأة، لكي تشرح فكرتها بشكل أفضل تُظهر قطعة خبز مستديرة في زجاجة؛ وأخرى، وسط السامبسين توزّع، كالخبز المقدّس، غبار صنادلها. وعلى سرير الماركوسيين الذي نثرت عليه الورود عاشقان يتعانقان. السيركونسيليون يتذابحون، والفاليسيون يحشرجون، باريديسان يغني، وكاربوكراس يرقص، ماكسيميلا وبريسيلا تطلقان أنيناً حاداً؛ ونبيّة كابادوس المزيفة، عارية تماماً، تسند مرفقها إلى أسد وهي تهز ثلاثة مشاعل، تصرخ بابتهال رهيب.

الأعمدة تهتز كجذوع الأشجار، والتمائم في أعناق الهراطقة تقاطع خطين من النار والنجوم في الكنائس تضطرب، والجدران تتراجع تحت هدوء الجمهور ورواحه، وكل رأس منه موجة تقفز وتزأر.

ومع ذلك، من وسط الهتاف، ارتفعت أغنية مع انفجارات بالضحك، يعود فيها اسم المسيح.

إنهم أبناء الشعب، وكلهم يصفقون بأيديهم لضبط الإيقاع.

وسطهم كان آريوس بلباس الشمّاس الإنجيلي:

- المجانين الذين يهتفون ضدي يسعون إلى تفسير العبث؛ ولكي أضيّعهم تماماً، ألّفتُ قصائد صغيرة مضحكة جداً بحيث إنهم يحفظونها عن ظهر قلب في الطواحين والحانات والمرافئ.

ألف مرة لا! الابن ليس مساوياً للخلود مع الأب، وليس من الجوهر نفسه! وإلا لما قيل: "أبي، أبعد عني هذه الكأس! - لماذا تسمونني طيباً! الرب وحده طيب!- أنا ذاهب إلى ربي، إلى ربكم!" وكلام آخر يشهد على نوعيته كمخلوق. وقد برهن عليه، إضافة إلى ذلك، من كل أسمائه: حَمَل، راعٍ، ينبوع، حكمة، ابن الإنسان، نبي، الطريق القويم، حجر الزاوية!

سابيليوس:

- أنا أرى أن الاثنين متطابقان.

آريوس:

- مجمع أنطاكية قرر العكس.

أنطونيوس:

- ما هي الكلمة إذاً؟.. وماذا كان يسوع؟

الفالنتينيون:

- كان زوج آشاراموت التائبة!

السيتيانيون:

- كان سام، ابن نوح!

التيوديسيون:

- لقد كان مِلكي صادق!

الميرانتيون:

- لم يكن إلا إنساناً!

الأبوليناريون:

- لقد اتخذ مظهره! وتظاهر بالعذاب.

مارسيل دانسير:

- إنه تطور للأب!

البابا كاليكسبت:

- الآب والابن هما شكلان لإله واحد!

ميتوديوس:

- كان أولاً في آدم، ثم في الإنسان!

سيرانت:

- وسوف يقوم!

فالنتان:

- مستحيل؛ لأن جسده سماوي!

بول دو ساموساد:

- هو ليس الله إلا منذ عماده.

هيرموجين:

- هو يسكن الشمس!

وصنع زعماء الهراطقة جميعاً دائرة حول أنطونيوس الذي يبكي ورأسه بين يديه.

تقدّم نحوه يهودي لحيته حمراء وجلده مصاب بالبرص وقال ساخراً برعب:

– روحه كانت روح عيسى! وكان يتألم من مرض؛ وأمه، بائعة العطور، سلّمت نفسها لبانتيروس، وهو جندي روماني، على باقات من الذرة، ذات مساء من أيام الحصاد.

رفع أنطونيوس رأسه بسرعة ونظر إليهم دون أن يتكلم؛ ثم مشى مباشرة نحوهم: معلّمون وسحرة ،أساقفة وشمّاسون ورجال، إلى الوراء! إلى الوراء! أنتم جميعاً أكاذيب!

الهراطقة:

– لدينا شهداء أشهد من شهدائك، وصلوات أصعب، ووثبات حب أعلى، ونشوات أطول.

أنطونيوس:

– ولكن ليس لديكم وحي! ليس لديكم براهين!

عند ذلك رفعوا جميعاً في الهواء لفافات من ورق البردي وألواحاً خشبية وقطعاً جلدية وعصبات من القماش؛ وأخذوا يتدافعون.

السيرانتيون:

– هذا إنجيل العبريين!

المارسيونيون:

- إنجيل الرب!

الماركوسيون:

- إنجيل حواء!

الأنكراتيون:

- إنجيل توما!

القايينيون:

- إنجيل يهوذا!

بازيليد:

- معاهدة الروح المحدثة!

مانيس:

- نبوءة باركوف!

انتفض أنطونيوس، وهرب منهم؛ فلمح في زاوية مليئة بالظل الإيبيونيين العجائز وهم جافون كمومياءات ونظراتهم مطفأة وحواجبهم بيضاء، وقالوا بصوت مرتجف:

- لقد عرفناه، نحن - الآخرين -، عرفنا ابن النجار! لقد كنا من عمره، ونسكن في الشارع نفسه. وكان يتسلّى باللعب بالطين لكي يشكّل عصافير صغيرة، دون أن يخشى حد القواطع، ويساعد أباه في عمله، أو يجمع لأمه كبباً من الصوف المصبوغ. ثم قام برحلة إلى مصر، وأتى من هناك بأسرار كبرى.

كنا في أريحا، حين أتى ليقابل آكل الجراد، تكلّما بصوت خافت، دون أن يتمكن أحد من سماعهما. ولكن بدءاً من تلك اللحظة سَرَت شائعة في الجليل، ورويت عنه حكايات كثيرة.

كرّروا وهم يرتعشون:

– لقد عرفناه، نحن – الآخرين -، عرفناه!

أنطونيوس:

– تكلّموا أيضاً، تكلّموا! كيف كان وجهه؟

نترتوليان:

– كان ذا مظهر ضارٍ ومنفّر؛ لأنه ارتكب كل الجرائم، وكل الآلام، وكل تشوّهات العالم.

أنطونيوس:

– أوه! لا! لا! بل بالعكس، أنا أتخيّل أن شخصه كان ذا جمال أكثر من بشري.

أوزيب القيصري:

– يوجد في بانياد، قرب بيت قديم متداع في كومة عشب تمثال حجري صغير، رفعته المصابة بالبواسير، كما يزعمون. ولكن الزمن أتى على وجهه، وأتلفت الأمطار الكتابة.

خرجت امرأة من مجموعة الكاروكراسيين، مارسيلينا، وقالت:

– في الماضي، كنتُ راهبة في روما في كنيسة صغيرة، أُري المؤمنين الصور الفضية للقديس بولس وهوميروس وفيثاغورث ويسوع المسيح. ولم أحتفظ إلا بصورته.

فتحت معطفها، وسألت:

– هل تريدها؟

قال صوت:

– سيظهر هو نفسه من جديد عندما نناديه! لقد آن الأوان؛ تعال!

أحس أنطونيوس بيد قاسية تطبق على ذراعه، وتقوده. صعد درجاً مظلماً تماماً؛- وبعد درجات كثيرة وصل إلى أمام باب. عند ذلك، قال من قاده (هل هو هيلاريون؟ إنه لا يعرف) في أذن شخص آخر: "الرب سيأتي"، - ودخلا إلى غرفة، منخفضة السقف، بلا أثاث.

ما أدهشه في البداية، هو أنه رأى أمامه يرقة طويلة بلون الدم، لها رأس إنسان، تفرّ منه أشعة، وكلمة *كنوفيس* مكتوبة باللغة اليونانية من حوله. وهي تشغل جسم عمود موضوع وسط حامل. وعلى الجدران الأخرى للغرفة، ميداليات حديدية مصقولة تمثل رؤوس حيوانات: رأس عجل، وأسد، وكلب، وحمار-أيضاً!

كانت المصابيح الصلصالية تحت هذه الصور ترسل ضوءاً مترنّحاً. ولمح أنطونيوس، عبر ثقب في الجدار القمرَ الذي يسطع

في البعيد على الأمواج، بل إنه سمع هديرها المنتظم، مع الصوت الأصم لجسم سفينة يضرب حجارة المكسر.

الناس مقرفصون، رؤوسهم تحت معاطفهم، يطلقون ما يشبه العواءات المخنوقة مع فواصل بينها. وهناك نساء نائمات، وجباههن على أذرعهن التي تسندها ركبهن، تائهات جداً في حجبهن كما لو أنهن أكوامٌ من الكلاب قرب الجدار. وإلى جانبهن أطفال أنصاف عراة، تأكلهم الديدان، وهم ينظرون نظرات بلهاء إلى المصباح المحترق؛ - لا يفعلون شيئاً؛ ينتظرون شيئاً ما. ويتكلّمون بصوت خافت عن عائلاتهم، أو يتبادلون أدوية لأمراضهم. بعضهم سيسافرون عند الفجر لأن الاضطهاد بات قوياً جداً. كما أنه ليس من الصعب خداع الوثنيين. "الأغبياء، يعتقدون أننا نعبد *كوفيس*!"

لكن أحد الأخوة، خطر بباله فجأة أن يقف أمام العمود، حيث وُضع رغيف خبز يعلو سلّة مليئة بالشمرة والزراوند.

وأخذ الآخرون أماكنهم مشكّلين ثلاثة صفوف متوازية.

فرش الموحى إليه لوحة إعلانية مغطّاة بالأسطوانات المتداخلة، وبدأ:

– على الظلمات نزلت الكلمة، وخرجت صرخة عنيفة، يبدو أنها صوت النور.

رد الجميع مؤرجحين أجسادهم:

– كيري إليزون!

قال الموحى إليه:

- وبعد ذلك خُلق الإنسان من رب إسرائيل الساقط بمساعدة هذه.

وأشار إلى الميداليات.

- أستوفاسوس، أورايوس، ساباوث، أدوناي، إلويي، لاو.

ورقد على الطين كريهاً مجنوناً مشوهاً، بلا تفكير.

قال الجميع بصوت شاكٍ:

- كيري إليزون!

الموحى إليه:

- لكن الفلسفة المشفقة ستحييه بوساطة جزء من روحها.

وعند ذلك، إذ رأى الله الإنسانَ بهذه الحال ثار غضبه، وسجنه في ملكوته ناهياً إياه عن شجرة العلم. والأخرى أنقذته مرة أخرى،! أرسلت إليه أفعى، بألاعيب طويلة جعلته يعصي هذا الناموس من الكراهية.

- وحين ذاق الإنسان طعم العلم فهم الأمور الإلهية.

كرّر الجميع بقوة:

- كيري إليزون!

الموحى إليه:

– ولكن، لكي ينتقم عبد الله، رمى الإنسان في المادة، ومعه الأفعى.

قال الجميع بصوت خافت:

– كيري إليزون!

أغلقوا أفواههم، ثم صمتوا.

امتزجت روائح المرفأ في الهواء الحار مع دخان المصابيح. فتائلها تتصلّب وتكاد تنطفئ. بينما البعوض الطويل يدور. وأنطونيوس يحشرج قلقاً، وكأن شعوراً بالوحشية يرفرف حوله، إنه الرعب من جريمة على وشك الوقوع.

ولكن الموحى إليه، إذ ضرب بعقبه، وطقطق أصابعه، وهز رأسه، ترنّم على الإيقاع الغاضب، على صوت الصنجات وصوت مزمار حاد:

– تعال! تعال! تعال! اخرج من كهفك!

فيلوس الذي يجري بلا أقدام، وآسر يمسك بلا أيدٍ.

متعرج كالأنهار، مستدير كالشمس، أسود مع بقع ذهبية، كالقبة السماوية التي تُنثر فيها النجوم! شبيه بحلزنة الكرمة والتفاف الأمعاء!

إينانجاندر، آكل التراب! الشاب دائماً! وثاقب النظر! المكرَّم في إيبيدور! جيد بالنسبة إلى البشر، الذي شفى الملك بطليموس، وجنود موسى، وغلاكوس بن مينوس!

تعال! تعال! تعال! اخرج من كهفك!

ردّدوا جميعاً:

- تعال! تعال! تعال! اخرج من كهفك!

ومع ذلك، لم يظهر شيء.

- لماذا؟ ما به؟

ومع ذلك فقد تشاوروا واقترحوا وسائل.

قدم عجوز باقة من العشب. عند ذلك حدث ارتفاع في السلة. وتحرّكت الخضرة، وسقطت أزهار، - وظهر رأس أَصَلة[1]. مرّت على حافة رغيف الخبز، كدائرة تدور حول قرص جامد. ثم تقدّمت، وتطاولت. هي ضخمة وذات وزن هائل. ولكي يمنعوها من أن تلامس الأرض، حملها الرجال على صدورهم، والنساء على رؤوسهن، والأطفال على أطراف أذرعهن؛ -وإذ خرج ذيلها من ثقب الجدار فإنه ذهب بلا نهاية إلى قاع البحر. وتضاعفت حلقاتها لتملأ الغرفة، وتحاصر أنطونيوس.

ألصق المؤمنون أفواههم على جلدها وانتزعوا الخبز الذي عضّته.

- أنتِ! أنتِ التي ربّاكِ موسى في البداية، وقطعك حزقيال، وربطكِ المسيح من جديد. لقد شربكِ في أمواج العماد؛ ولكنكِ غادرته في حديقة الزيتون، فشعر عندئذٍ بضعفه كله.

---

[1] الأصلة python: تنّين برّي، جنس من ثعابين كبيرة، قوي العضلات، غير سام يعيش بين الصخور في المناطق الحارة من أفريقيا والهند، يبلغ طوله من 8 إلى 10 أمتار، ومحيط جسمه نحو 80 سم. يلتف حول فريسته ويسحقها بين حلقات عضلاته القوية. (م)

التففتِ على ذراع الصليب، وأعلى من رأسه، وأنتِ تبصقين على تاج الأشواك، كنت تنظرين إليه وهو يموت. -لأنكِ لست يسوع، أنتِ، أنتِ الكلمة! أنتِ المسيح!

أُغمي على أنطونيوس من الهلع وسقط أمام كوخه على قطع الخشب حيث يشتعل ببطء المشعل الذي هوى من يده.

جعلته هذه الصدمة يفتح عينيه؛ فرأى نهر النيل متعرجاً وواضحاً تحت بياض القمر، كثعبان كبير وسط الرمال؛ - بحيث إن الهلوسة إذ عاودته، لم يفارق الأوفيتيين؛ بل أحاطوا به ونادوه، حملوا الأمتعة، ونزلوا إلى المرفأ. وأبحر معهم.

مضى زمن لا يمكن حسابه.

ثم أحاطت به قبّة سجن. تشكّل القضبان أمامه خطوطاً سوداء على خلفية زرقاء؛ -وإلى جانبه، في الظل، أشخاص يبكون ويصلّون محاطين بآخرين يشجّعونهم ويواسونهم.

وفي الخارج بدا وكأن هناك جلَبة جمهور، وروعة نهار صيفي.

أصوات حادة تصرخ على البطيخ والماء والأشربة المثلّجة، والوسائد من العشب من أجل الجلوس. وبين وقت وآخر يُسمع تصفيق.

سمع مشياً فوق رأسه.

وفجأة انطلق صهيل طويل، قويٌّ وكهفيٌّ كصوت جريان الماء في إحدى القنوات.

ورأى مقابله، خلف قضبان زنزانة أخرى، أسداً يتنزّه، - ثم صفّاً من الصنادل، ومن السيقان العارية والحواشي الأرجوانية. وبعد ذلك، رأى تيجاناً من البشر في طبقات متناظرة تمضي متوسعة من الطبقة السفلى التي تحيط بالحلبة إلى الأعلى حيث تنتصب صوارٍ لتحمل شراعاً من الياقوت الزعفراني، مشدودة في الهواء، على الحبال. وهناك أدراج تشعُّ نحو المركز، تقطع هذه الدوائر الحجرية بفواصل متساوية. تختفي درجاتها تحت شعب جالس، فرسان، وأعضاء مجلس شيوخ، وجنود، وعامة الشعب، وكهنة، ورجال بلاط، - بقلنسوات صوفية ورايات حريرية، وأثواب وحشية، مرصّعة بأحجار كريمة وعمائم عليها ريش، وحزم من معلني الأحكام؛ وهذا كله يمور ويصرخ ويغضب فيُذهله كحوض يغلي. ووسط الحلبة، على مذبحٍ، هناك إناءٌ حُرِق فيه بخور.

وهكذا فإن الأشخاص المحيطين به مسيحيون محكومون بالحيوانات. فالرجال يلبسون معاطف حمراء لكهنة ساتورن، والنساء يضعن أشرطة سيرس. بينما أصدقاؤهم يقتسمون نتفاً من ملابسهم وخواتمهم. ومن أجل الدخول إلى السجن، وجب عليهم، كما يقولون، أن يدفعوا الكثير من المال. لا يهم! وسيبقون حتى النهاية.

من بين هؤلاء المواسين، رأى أنطونيوس رجلاً أصلع يرتدي قفطاناً أسود، وقد ظهر وجهُه من قبل في مكان ما؛ يحدّثهم

عن فناء العالم وعن هناء الأخيار. قفز أنطونيوس حباً. وتمنّى الحصول على الفرصة بأن يضحّي بحياته من أجل المخلّص، دون أن يعلم ما إذا كان هو نفسه أحد هؤلاء الشهداء.

ولكن، باستثناء رجل فْريجيّ طويل الشعر، يُبقي ذراعيه مرفوعتين، بدا الجميع حزينين. عجوز يشهق على مقعد، وشاب يحلم واقفاً، مطأطئ الرأس.

لم يشأ العجوز أن يدفع، وقف على زاوية مفترق طرق، أمام تمثال لمينرفا؛ وتأمل رفاقه بنظرة تعني:

- كان عليكم أن تنقذوني! هناك مجموعات تتشكّل أحياناً لكي تترك بسلام. بل إن بعضاً منكم تلقّوا هذه الرسائل التي تعلن بشكل كاذب أنهم ضحّوا للأوثان.

سأل:

- أليس بطرس الإسكندري هو الذي نظّم ما يجب أن نفعله حين نقع في العذاب!

ثم قال لنفسه:

- آه! هذا صعب جداً في سنّي! إن عجزي يجعلني ضعيفاً جداً! ومع ذلك كان بوسعي أن أعيش حتى الشتاء الآخر، أيضاً!

أثارت ذكرى حديقته الصغيرة شجونَه؛ فنظر باتجاه المذبح.

همس الشاب الذي عكّر بضرباته احتفال أبولون:

- ومع ذلك، لا يتعلق الأمر إلا بي لكي أهرب في الجبال!

– كان الجنود سيقبضون عليك، قال أحد الأخوة.

– أوه! كنت سأفعل مثل سيبريان؛ كنت سأعود؛ وفي المرة الثانية سأكون أكثر قوة، بكل تأكيد!

وبعد ذلك، فكّر بالأيام التي لا تُعد ولا تُحصى التي يجب أن يعيشها، وبكل الأفراح التي لم يعرفها؛ ونظر باتجاه المذبح. لكنَّ الرجل الذي يرتدي القفطان الأسود خفَّ إليه وقال:

– يا للفضيحة! ماذا، أنت، ضحية انتخاب! هؤلاء النساء جميعاً اللواتي ينظرن إليك، فكّر إذاً! ثم إن الله يصنع معجزة أحياناً. فقد خدّر بيونيوس أيدي جلّاديه، وأطفأ دمُ بوليكارب لهب محرقته.

التفت نحو العجوز وقال:

– أبي، أبي! يجب أن تعلمنا بموتك. عندما تؤخره، فإنك ترتكب بكل تأكيد فعلاً سيئاً يضيّع ثمرة أفعالك الحسنة. على أية حال إن قوة الله بلا حدود. وقد تكون قدوةً تجعل الشعب بأسره يؤمن.

وفي الزنزانة المقابلة، الأسود تذهب وتأتي بلا توقف، بحركة مستمرة، وسريعة. وفجأة نظر أكبرها إلى أنطونيوس، وأخذ يزأر، فخرج بخار من فمه.

النساء انحشرن بالرجال.

أخذ الواسي يتنقّل من شخص إلى آخر وهو يقول:

– ماذا تقولون؟ ماذا تقول إذا ما أُحرقت بقطع حديدية، إذا ما فسختك خيول، إذا ما افترس الذباب جسمك المدهون بالعسل! لن يكون لك إلا الموت على يد صيادٍ يفاجئك في الغابة.

أنطونيوس يفضّل هذا كلَّه أكثر من الحيوانات الشرسة؛ أعتقد أنه يحسّ بأنيابها، وبمخالبها، ويسمع عظامه تطقطق بين أفكاكها.

يدخل مروّض وحوش ضارية إلى الزنزانة، فيرتعد الشهداء. إلا واحداً منهم لا يبدو عليه التأثر، إنه الفريجي، الذي كان يصلي على انفراد. أحرق ثلاثة معابد، وتقدم رافعاً ذراعيه، فاتحاً فمه، ورأسه في السماء، دون أن يرى شيئاً، كمن يسير في نومه.

يصرخ المواسي:

– تراجعوا! تراجعوا! روح مونتانوس ستأخذكم.

يتراجعون جميعاً وهم يصرخون:

– اللعنة على المونتاني!

شتموه، وبصقوا عليه، وأرادوا أن يضربوه.

الأسود المشرئبّة تتعاضض في لبداتها. والشعب يصرخ: "إلى الوحوش! إلى الوحوش!"

ينفجر الشهداء شاهقين، ويتعانقون. قُدّمت إليهم كأسُ خمر مخدّر. فتناقلوها من يد إلى أخرى، بسرعة.

عند باب الزنزانة، ينتظر مروّض وحوش ضارية آخر الإشارة. فُتحت فخرج أسد.

اجتاز الحلبة بخطوات سريعة مائلة. وخلفه تسير الأسود الأخرى في رتل، ثم دبّ، ثم ثلاثة نمور، ثم فهود. انتشروا كقطيع في مرعى.

دوّت طقطقة سوط. ترنّح المسيحيون، ومن أجل الانتهاء، دفعهم أخوتهم. أغمض أنطونيوس عينيه.

فتحهما لكن الظلمات غلّفتهما.

ثم سرعان ما أضيئتا، وسرعان ما ميّز سهلاً قاحلاً، كالذي يُشاهَد منه حول المقالع المهجورة.

هنا وهناك باقات من الشجيرات ترتفع بين البلاطات على سطح الأرض؛ وأشكال بيضاء أكثر حيرة من الغيوم تنحني عليها.

تأتي أخرى بصورة خفيفة. عيون تلمع في شق الحجب الطويلة. تعرّف أنطونيوس إلى النبيلات من مشيتهن اللامبالية والعطور المتضوّعة منهن. وكان هناك رجال أيضاً، ولكن من طبقة أدنى، لأن وجوههم ساذجة وفظة في آن واحد.

قالت إحداهن وهي تتنفّس بعمق:

– آه! ما أجمل نسيم الليل البارد، وسط القبور! لقد تعبتُ كثيراً من رخاوة الأسرّة، ومن ضوضاء الأيام وثقل الشمس!

أخرجت خادمتها مشعلاً من كيسٍ من الخيش وأشعلته. وأشعل المؤمنون مشاعل أخرى، وذهبوا ليجلسوا على القبور.

تلهث امرأة:

- آه! أخيراً ها أنا ذا! ولكن يا لبؤسي لأني تزوجت من عابد للأوثان!

وتقول أخرى:

- زيارة السجون، والأحاديث مع أخوتنا، هذا كلّه مشبوهٌ في نظر أزواجنا! - بل يجب علينا أن نتوارى حين نرسم إشارة الصليب؛ فهم يعدّون هذا تعويذة سحرية.

وتقول ثالثة:

- أنا في عراكٍ يوميّ مع زوجي؛ فأنا لم أشأ أن أرضخ للأعمال الخاطئة التي يطلبها من جسدي؛ ولكي ينتقم فقد لاحقني كمسيحية.

وتقول رابعة:

- هل تتذكرون لوسيوس، ذلك الشاب الوسيم جداً الذي جُرَّ من عقبيه خلف عربة، مثل هكتور، من باب إسكيلين حتى جبال تيبور؛ - فلطّخ دمُه الأحراج على جانبي الطريق! وقد وصلتني بعض قطراته. وها هي!

وأخرجت من صدرها أسفنجة سوداء تماماً وغطّتها بالقبلات، ثم ارتمت على الأرض وهي تصرخ:

– آه! يا صديقي! يا صديقي!

وقال رجل:

– اليوم تُتم دوميتيلا إلثلاث سنوات على وفاتها. لقد رُجِمت داخل غابة بروزربين، وقد جمعتُ عظامها التي كانت تُشع كَيَراعة[2] في العشب. والتراب يغطيها الآن!

وارتمى على قبر وصاح:

– أوه! يا خطيبتي! يا خطيبتي!

وصاح الآخرون جميعاً عبر السهل:

– أوه يا أختي! أوه يا أخي! أوه يابنتي! أوه يا أمي!

ركعوا، ووضعوا جباههم بين أيديهم، أو انبطحوا ومدّوا أذرعهم؛ والشهقات التي كبتوها رفعت صدورهم حتى كسرتها. وأخذوا ينظرون إلى السماء قائلين:

– ارحم روحها يا ربّاه! فقد ذوت من السُكنى في الظلال وتكرّمْ بقبولها في يوم القيامة، لكي تتمتع بنورك!

أو يثبتون أعينهم على الأرض ويهمسون:

– اهدئي لا تتألمي بعد الآن! فقد جلبت لكِ خمراً ولحماً!

وتقول أرملة:

– هذه عجّة صنعتها بيدي، بحسب ذوقه، بكثير من البيض وكمية مضاعفة من الدقيق! وسنأكلها معاً، كما في الماضي، أليس كذلك؟

---

[2] اليراعة هي حشرة تُصدر ضوءاً في الليل. (م)

ورفعت قليلاً منها إلى شفتيها؛ وفجأة أخذت تضحك بطريقة غريبة وهيستيرية. ففعل الآخرون مثلها وقضموا قطعة وشربوا جرعة.

تبادلوا رواية قصص شهدائهم؛ وتجلّى الألم، وتضاعف شرب الخمر. وتثبّتت عيونهم الدامعة، كلٌّ على الآخر. تأثؤوا من السُكر والأسى؛ وشيئاً فشيئاً تلامست أيدهم واتحدت شفاههم، وانفتحت الحُجب واختلطوا على القبور بين الكؤوس والمشاعل.

بدأت السماء تبيضُّ. وبلّل الضباب ثيابهم، وكما لو أنهم لم يتعارفوا، ابتعد بعضُهم عن بعض في طرق مختلفة في الريف.

الشمس تشعُّ، والعشب نما، وتحوّل السهل. رأى أنطونيوس بوضوح عبر سوق الخيزران غابة من الأعمدة لونها رمادي مائل إلى الزرقة. إنها جذوع أشجار آتية من جذع واحد. ومن كل غصن من أغصانه تنزل أغصان أخرى تنغرس في الأرض؛ ومجموع هذه الخطوط الأفقية والشاقولية، المتكاثرة إلى ما لا نهاية، يشبه بناءً وحشياً، لو لم يكن لها ثمرة تين صغيرة من مكان إلى آخر، مع أوراق مائلة إلى السواد، كأوراق الجمّيز.

وميّز في تشعباتها عناقيد من الأزهار الصفراء، وأزهار بنفسجية وأغصان، شبيهة بريش الطيور.

تحت الأغصان السفلية تظهر هنا وهناك قرون حيرَم أو العيون اللامعة لظبي؛ وببغاوات منتشرة وفراشات تطير

وسحليات تزحف وذباب يطنُّ ويُسمع في وسط الصمت ما يشبه نبض حياة عميقة.

في مدخل الغابة نوع من المحرقة شيء غريب - رجل مدهون بروث بقرة، عارٍ تماماً، أكثر جفافاً من مومياء، مفاصله تشكّل عقداً في نهايات عظامه التي تبدو كعصيّ. لديه علب من القواقع في أذنيه، وجهه طويل جداً، وأنفه كمنقار صقر، ذراعه اليمنى بقيت مستقيمة في الهواء، فهو مصاب بتصلّب المفاصل، صلب كوتد؛ يقف هناك منذ زمن طويل جداً بحيث إن العصافير قد صنعت عشّاً في شعره.

في زوايا محرقته الأربع تشتعل أربع نيران، والشمس مقابله تماماً، يتأمّلها بعينين مفتوحتين على اتساعهما؛- دون أن ينظر إلى أنطونيوس.

– براهمان ضفاف النيل، ما قولك في ذلك؟

ألسنة لهب تخرج من الجوانب كلها بينها فواصل، من العوارض.

ويضيف الصوفي العاري:

– كوحيد القرن، انغرستُ في الوحدة، أسكن الشجرة خلفي. عملياً، التينة الضخمة تشكّل في أخاديدها تجويفاً طبيعياً بحجم رجل. أتغذّى من أزهار الفواكه، مع مراعاة شديدة للتعاليم، حتى الكلب لم يرَني وأنا آكل.

وبما أن الحياة تتأتّى من الفساد، والفساد من الرغبة، والرغبة من الإحساس، والإحساس من الملامسة، هربتُ من كل فعل، ومن كل ملامسة؛ ودون أن أتحرّك أكثر من مسلة قبر، أخرج أنفاسي من منخريّ، مثبّتاً نظري على أنفي، ومتأمّلاً الأثير في روحي، والعالم في أطرافي، والقمر في قلبي،- كنتُ أفكّر بجوهر الروح الكبرى، التي تخرج منها باستمرار مبادئ الحياة، كشرر النار.

وأخيراً قبضتُ على الروح العليا في الكائنات جميعاً، والكائنات جميعاً في الروح العليا؛- وتمكّنتُ من إدخالها إلى روحي، التي أدخلتُ إليها حواسّي.

أتلقّى العلم من السماء مباشرة، كالعصفور تشاتاكا الذي لا يرتوي إلا من المطر.

عبر هذا على الرغم من أني أعرف الأشياء، فإن الأشياء غير موجودة.

بالنسبة إلي الآن، لا يوجد أمل ولا يوجد قلق، لا سعادة، ولا فضيلة، لا نهار ولا ليل، لا أنت ولا أنا، لا يوجد شيء على الإطلاق. إن تقشفي الرهيب جعلني أتفوّق على القوى. وإن تقلّص تفكيري يمكن أن يقتل مئة من أبناء الملوك، ويُسقط آلهة عن عروشها ويقلب العالم.

قال هذا بصوت وحيد النبرة.

خشخشت الأوراق من حوله، وهربت الجرذان عبر الأرض.

خفض عينيه ببطء نحو ألسنة اللهب المتصاعدة ثم أضاف:

– لقد شعرت بالاشمئزاز من الشكل، ومن الإدراك، ومن المعرفة نفسها؛ -لأن التفكير لا يعيش بعد الحدث الانتقالي الذي يسبّبه، والعقل ليس إلا وهماً كبقية الأشياء.

كلُّ ما هو مولود سيفنى، وكل ما مات سيعيش من جديد؛ الكائنات المختفية حالياً ستقيم في الأرحام غير المتشكلة بعد، وستعود إلى الأرض لكي تخدم بألمٍ مخلوقات أخرى.

ولكن بما أني تنقّلت في عدد لا نهاية له من الحيوات، تحت أغلفة من الآلهة والبشر والحيوانات، فقد تخلّيت عن السفر، ولم أعد أريد هذا التعب! هجرت مسكن جسدي القذر، المبني من اللحم والمحمَّر بالدم، والمغطى بجلد كريه، والمليء بالقذارات؛ وكمكافأة لي، سأذهب أخيراً لأنام في أعمق أعماق المطلق، في الفناء.

ألسنة اللهب ترتفع حتى صدره، ثم تغلّفه. ويمر رأسه عبرها كثقب في جدار. وعيناه الواسعتان ما تزالان تنظران.

نهض أنطونيوس من جديد. أحرق المشعل الذي على الأرض قطعَ الخشب، فحمّرت ألسنةُ اللهب لحيتَه.

أخذ أنطونيوس يخبط فوق النار وهو يصرخ؛ وحين لم يبقَ سوى كومة من الرماد، صاح:

– أين هيلاريون؟ لقد كان هنا منذ قليل. رأيته! إيه! لا، هذا مستحيل! لقد أخطأت! لماذا؟... كوخي وهذه الحجارة، وهذا الرمل ربما لم يعد لكل هذا وجود واقعي. لقد أصبحت مجنوناً. بعض الصمت! أين كنت؟ ماذا حدث؟

آه! المتصوف العاري!... هذا الموت المشترك بين الحكماء الهنود. كالانوس أحرق نفسه أمام الإسكندر؛ وآخر فعل الشيء نفسه في زمن أغسطس. أية كراهية للحياة يمتلكان! إلا إذا كانت الكبرياء هي التي تدفعهم؟... لا يهم، إنه إقدام الشهداء!... أما هؤلاء، فأنا أصدّق الآن كل ما قيل لي حول الفسق الذي سبّبوه.

وفي الماضي؟ نعم، أنا أتذكر! جمهور الهراطقة... أي صراخ! وأية عيون! ولكن لماذا كل هذا الفيض من اللحم وهذا التيه للعقل؟

يزعمون أنهم يتجهون نحو الله عبر هذه الطرق كلها! فبأي حق ألعنهم، أنا الذي أتعثّر في طريقي؟ حين اختفوا ربما كنت سأتعلم أكثر. هذا يدور بسرعة هائلة؛ ولم يكن لدي وقت لأجيب. الآن وكأنه كان يوجد فراغ أكثر ونور أكثر. أنا هادئ. أشعر أني قادر... ماذا إذاً؟ ظننت أني أطفأت النار!

ارتفع لهب بين الصخور وسرعان ما سُمع صوت متقطّع في البعيد، في الجبل.

– هل هو عواء ضبع أو شهيق مسافر تائه؟

تنصت أنطونيوس؛ اللهب يقترب. رأى امرأة تقترب باكية، مستندة إلى كتف رجل أبيض اللحية. ترتدي فستاناً أرجوانياً مقطّعاً. والرجل حاسر الرأس، مثلها، مع ثوب له اللون نفسه، ويحمل إناءً برونزياً يرتفع منه لهب أزرق.

خاف أنطونيوس وأراد أن يعرف من هذه المرأة.

قال الغريب (سيمون):

– إنها فتاة شابة، طفلة مسكينة، أصحبها معي أنى حللت.

ورفع الإناء البرونزي. تأملها أنطونيوس على ضوء هذا اللهب المترنح؛ كان على وجهها علامات عضٍّ، وعلى طول ذراعيها أثار ضربات، وشعرها المبعثر يتعلّق بمِزَق أسمالها، وبدت عيناها وكأنهما لا تُحسّان بالضوء.

قال سيمون:

– أحياناً تبقى هكذا لزمن طويل جداً، دون أن تتكلم، ودون أن تأكل؛ ثم تستيقظ، وتقول أشياء عجيبة.

أنطونيوس:

– حقاً؟!

سيمون:

– إينويا! إينويا! إينويا! اروي لنا ما لديكِ!

أدارت بؤبؤيها وكأنها خارجة من حلم، ومررت ببطء أصابعها على حاجبيها وقالت بصوت حزين:

- لدي ذكرى منطقة بعيدة، لونها زمردي، وفيها شجرة واحدة.

ارتعد أنطونيوس.

- عند كل درجة من أغصانها الواسعة يقف زوج من الأرواح. تتقاطع الأغصان من حولهم كعروق الجسد، وينظرون إلى الحياة الأبدية وهي تتحرك من الجذور الغائصة في الظل وحتى القمة التي تتجاوز الشمس. وأنا، على الغصن الثاني، أُنير بوجهي ليالي الصيف.

قال أنطونيوس وهو يلمس جبينه:

- آه، آه فهمت! الرأس!

وضع سيمون أصبعه على فمه:

- صه!

وأضافت هيلين:

- ظلَّ الشراع منتفخاً، والسفينة تشقُّ الزبد. كان يقول لي: "ماذا يهمني إذا ما عكّرت صفو وطني وإذا ما فقدت مملكتي! أنتِ ستكونين لي، في بيتي!"

كم كانت جميلة الغرفة العالية من قصره! كان ينام على سرير من العاج ويداعب شعري، ويغني بحب.

في نهاية النهار كنت ألمح المعسكرين، والمشاعل التي أضيئت، أوليس يقف بجانب خيمته، وأخيل يقود عربته على طول شاطئ البحر وهو مدجّج بالسلاح.

قال أنطونيوس:

- ولكنها مجنونة تماماً! لماذا؟...

قال سيمون:

- صه!... صه!.

أضافت هيلين:

- دهنوني بالمراهم، وباعوني للشعب لكي أسلّيه.

وذات يوم، كنتُ واقفة، والمزهر بيدي، كنتُ أرقّص بحارة يونانيين، والمطر يهطل مدراراً على الحانة، وكؤوس النبيذ الحار يتصاعد بخارها، فدخل رجل دون أن يُفتَح الباب.

قال سيمون:

- كنتُ أنا! وقد عثرتُ عليك!

هي ذي يا أنطونيوس، تلك التي تسمّى سيجيه، إينويا، باربلو، برونيكوس! كانت الأرواح التي تحكم العالم غيورة منها، وعلّقتها في جسد امرأة.

كانت هيلين عند الطروادیين التي لعن الشاعر ستيسيكور ذكراها. وكانت لوكريس، ابنة الطبقة الراقية التي اغتصبها الملوك. وكانت دليلة التي قصّت شعر شمشون. وكانت ابنة إسرائيل التي كانت تمنح نفسها للتيوس. أحبت الدعارة، وعبادة الأوثان والكذب والغباء، وتعهّرت عند جميع الشعوب. وغنّت على مفترقات الطرق كلّها، وكسرت الوجوه كلّها.

كانت عشيقة اللصوص في مدينة صور السورية. تشرب معهم ليلاً، وتخبّئ القتلة في سريرها الدافئ.

أنطونيوس:

- إيه! ماذا تفعل لي!...

قال سيمون بسُعار:

- لقد اشتريتُها من جديد، أقول لك. وتألّقت في روعتها؛ بحيث إن كايوس قيصر كاليغولا عشقها، لأنه كان يريد أن ينام مع القمر.

أنطونيوس:

- وبعد؟

سيمون:

- ولكنها هي القمر! ألم يكتب البابا كليمان أنها كانت مسجونة في برج؟ أتى ثلاثمائة رجل وطوّقوا البرج؛ وفي كلّ فتحة من الفتحات ظهر قمر في الوقت نفسه، على الرغم من أنه لا يوجد عدة أقمار في العالم، ولا عدة إينويات!

أنطونيوس:

- نعم، أعتقد أني تذكّرت...

وسقط في حلم يقظة.

سيمون:

- بريئة كالمسيح الذي مات من أجل البشر، نذرت نفسها من أجل النساء. لأن عجز يهوه يُبرهن في عصيان آدم، ويجب هزّ الناموس القديم، الغث، بحكم الأشياء.

لقد وعظت بالتجديد في إفراييم وإيزاشار، على طول سيل بيزور، خلف بحيرة الحولة، في وادي مجدّو، أبعد من الجبال، في بصرى وفي دمشق. أتى إليّ المغطّون بالنبيذ، المغطّون بالطين، المغطّون بالدم؛ وسأمحو نجاستهم مع الروح القدس، الذي سماه اليونانيون مينرفا! إنها مينرفا! إنها الروح القدس! وأنا جوبيتر، أبولون، المسيح، باراكليه، قوة الله العظمى المتجسّدة في شخص سيمون.

أنطونيوس:

- آه! هذا أنت!....هذا أنت إذاً! ولكني أعرف جرائمك!

لقد وُلدتَ في جيتوا، قرب السامرة، وسيدك الأول طردك! أنت تكره القديس بولس لأنه هدى إحدى نسائك؛ وغلبك القديس بطرس- وبسبب السعار والرعب رميت في النار الكيس الذي يحوي حيَلَك.

سيمون:

- هل تريدها؟

نظر إليه أنطونيوس؛ همس في صدره صوت داخلي: "ولم لا؟"

أضاف سيمون:

- من يعرف قوى الطبيعة وجوهر الأرواح يجب أن يفعل المعجزات. إنه حلم الحكماء جميعاً، والرغبة التي تنهشك. اعترف بذلك!

وسط الرومان، طرتُ عالياً جداً في السيرك بحيث إنهم لم يروني ثانية؛ وأمر نيرون أن يُقطع رأسي، ولكن رأس شاة هو الذي هوى أرضاً، بدلاً من رأسي. وأخيراً دفنوني حياً، ولكني ولدت من جديد في اليوم الثالث. والدليل هو أني ها أنا ذا!

أعطاه يديه ليشمّهما، فكانت رائحة الجيفة تفوح منهما.

تراجع أنطونيوس.

- أستطيع أن أحرّك الثعابين البرنونية، وأضحك التماثيل الرخامية، وأكلّم الكلاب. سأريك كمية هائلة من الذهب، وسأعيّن ملوكاً، وسترى شعوباً تعبدني! أستطيع أن أمشي على الغيوم وعلى الأمواج، وأن أمرّ عبر الجبال، وأن أظهر في إهاب شاب، وعجوز، ونمر، ونملة، وآخذ وجهك، وأعطيك وجهي، وأقود الصاعقة. هل تسمعني؟

هدر الرعد، وتعاقبت بروق.

- إنه صوت الله تعالى! "لأن ربك الأبدي نار"، وكل عمليات الخلق تتم من انبثاقات هذا الموقد.

- سوف تتلقى العماد؛ هذا العماد الثاني الذي بشّر به يسوع، والذي هبط على الرسل ذات يومٍ عاصفٍ وكانت النافذة مفتوحة!

كان يتكلّم وهو يُحرك اللهب بيده ببطء وكأنه يريد أن يرشّ به أنطونيوس ثم أضاف:

- يا أم الرحمات، أنتِ التي تكتشفين الأسرار، لكي تأتينا الراحةُ في البيت الثامن...

صاح أنطونيوس:

- آه! ليت لدي الماء المقدّس!

انطفأ اللهب محدثاً كثيراً من الدخان.

إينويا وسيمون اختفيا. وملأ الجوَّ ضبابٌ كتيم ونتن وبارد إلى أقصى الحدود.

مدَّ أنطونيوس ذراعيه كأعمى وهو يقول:

- أين أنا؟... أخشى أن أسقط في الهاوية. والصليب بعيد جداً عني بكل تأكيد... آه! يا له من ليل! يا له من ليل!

بعصفة ريح انشقَّ الضباب؛ -فلمح رجلين يرتديان قفطانين أبيضين. كان الأول طويل القامة، ناعم الوجه، رصين الهيئة. وشعره الأشقر المتباعد كشعر المسيح يسندل بانتظام على كتفيه. رمى عصا كان يحملها بيده فتناولها رفيقه منحنياً احتراماً على طريقة الشرقيين. أما الرجل الثاني فكان قصير القامة ضخم الجثة أفطس الأنف، قصير الرقية، أجعد الشعر، وذا هيئة ساذجة. والرجلان حافيا القدمين وحاسرا الرأس، مغبرّين كأنهما واصلان من سفر.

جفِل أنطونيوس وسألهما:

- ماذا تريدان؟ تكلّما! اذهبا!

قال دانييس، وهو الرجل القصير:

- آه! يا أيها الناسك الطيب! ما أريده؟ لا أعرف عنه شيئاً! هذا معلّمي.

وجلس، أما الآخر فقد بقي واقفاً بصمت.

أضاف أنطونيوس:

- من أين أتيتما؟...

داميس:

- أوه! من بعيد، من بعيد جداً!

أنطونيوس:

- وإلى أين ستذهبان؟...

أشار داميس إلى الآخر وقال:

- إلى حيث يشاء!

أنطونيوس:

- من هو إذاً؟

داميس:

- انظر إليه!

قال أنطونيوس لنفسه:

- يبدو أحد القدّيسين! إذا جرؤت...

تبدد الدخان. وصحا الجوُّ. وأرسل القمر نوره.

داميس:

- بماذا تفكّر؟ ولماذا لم تعد تتكلم؟

أنطونيوس:

- أفكّر... أوه! بلا شيء.

تقدّم داميس نحو أبولونيوس ودار حوله عدة دورات، محنيً الظهر، دون أن يرفع رأسه، ثم قال:

- معلّمي! هذا ناسك من الجليل يريد أن يعرف أصول الحكمة.

أبولونيوس:

- فليقترب!

تردد أنطونيوس، فقال له داميس:

- اقترب!

وخاطبه أبولونيوس بصوت هادر:

- اقترب! أنت تريد أن تعرف من أكون وماذا فعلت وبماذا أفكر، أليس كذلك يا بني؟

ردَّ أنطونيوس بوجل:

- ... إذا استطاعت هذه الأشياء أن تُسهم في خلاصي.

أبولونيوس:

- افرح، فسأقولها لك!

قال داميس بصوت خافت لأنطونيوس:

– هل هذا ممكن! لا بدَّ أنه قد لمس لديك منذ النظرة الأولى ميولاً غير عادية إلى الفلسفة! وسأستفيد من هذا، أنا أيضاً!

أبولونيوس:

– سأروي لك أولاً الطريق الطويل الذي سلكتُه لكي أحصل على العقيدة؛ وإذا وجدت فعلاً سيّئاً في حياتي كلها فأوقفني، لأن هذا سيفضح بكلامه السوء الذي اقترفه بأفعاله.

قال داميس لأنطونيوس:

– يا له من رجل عادل! أليس كذلك.

أنطونيوس:

– بكل تأكيد، أعتقد أنه صادق.

أبولونيوس:

– ليلة ولادتي، ظنّت أمي أنها رأت نفسها تقطف أزهاراً على شاطئ بحيرة. ولمع برق، ووضعتني على صوت طائر اليم الذي كان يغني في حلمها.

حتى سن الخامسة عشرة، غُطّست ثلاث مرات في نبع أسبادي الذي تجعل مياهه من يحلف بالأيمان الكاذبة مصاباً بالاستسقاء، وفُرِك جسمي بأوراق الكنيزا لتجعلني عفيفاً.

ذات مساء، زارتني أميرة تدمرية، وقدّمت إلي كنوزاً تعرف أنها كانت موجودة في قبور. وذبحت سادنة معبد ديانا نفسها يأساً بسكّين القرابين؛ وصرخ حاكم كيليكيا في نهاية وعوده

أمام عائلتي بأنه سيقتلني؛ ولكنه هو الذي مات بعد ثلاثة أيام، مقتولاً على يد الرومان.

قال داميس لأنطونيوس وهو يربت على مرفقه:

- إيه؟ عندما كنت أقول لك! يا له من رجل!

أبولونيوس:

- لذتُ بصمت الفيثاغورثيين المطبق طوال أربع سنوات. ولم ينتزع الألمُ الأشدُّ زفرةً واحدة مني؛ وعندما كنت أدخل إلى المسرح كان الناس يبتعدون عني ابتعادهم عن شبح.

أدميس:

- هل كنتَ ستفعل هكذا، أنت؟

أبولونيوس:

- بعد أن انتهت محنتي، بدأتُ بتثقيف الكَهنة الذين فقدوا التراث.

أنطونيوس:

- أي تراث؟

أدميس:

- دعه يكمل! اسكت!

أبولونيوس:

- لقد تكلّمتُ مع سامانيي نهر الغانج، ومع منجّمي الكلدانيين، ومع مجوس بابل، ومع الدويد الغاليين، ومع

كهنوت الزنوج، وصعدتُ الأربعة عشر أولب، وسبرتُ أغوار بحيرات سيتي، وقستُ مساحة الصحراء.

داميس:

- أجل هذا كله صحيح؛ فأنا كنت موجوداً!

أبولونيوس:

- في البداية وصلتُ حتى بحر هيركاني. درت حوله؛ وفي بلاد الباراوماتيين حيث دُفِن بوسيفال، ونزلت نحو نينوى. وعند أبواب المدينة اقترب مني رجل.

داميس:

- أنا! أنا! يا معلمي! كنت أحبك، مباشرة! لقد كنتَ أعذب من فتاة وأجمل من إله!

أضاف أبولونيوس دون أن يسمعه:

- كان يريد أن يرافقني ليخدمني كمترجم.

داميس:

- ولكنك أجبت أنك تفهم اللغات كلّها وتعرف الأفكار كلّها. وعند ذلك قبّلتُ طرف معطفك، وأخذتُ أمشي خلفك.

أبولونيوس:

- بعد اكتيزيفون دخلنا إلى أراضي بابل.

داميس:

- وأطلق المرزبان صرخة حين رأى رجلاً بهذا الشحوب.

قال أنطونيوس لنفسه:

- ماذا يعني...

أبولونيوس:

- استقبلني الملك واقفاً قرب عرشه الفضي، في قاعة مستديرة، مغطاة بالنجوم؛ ومن القبة كان يتدلى بخيوط لا تُرى أربعة طيور ذهبية كبيرة مبسوطة الجناحين.

قال أنطونيوس حالماً:

- هل يوجد على وجه الأرض أشياء مشابهة؟

داميس:

- يا لها من مدينة، هذه البابل! الناس فيها كلهم أغنياء، وبيوتها المطلية باللون الأزرق لها أبواب برونزية مع درج ينزل نحو النهر؛ قال ذلك بينما كان يرسم بعصاه على الأرض.

- وهكذا هل ترى؟ ثم، هي معابد وساحات وحمّامات وأقنية ري، القصور مغطاة بالنحاس الأحمر، وفي الداخل، ليتك تعرف!

أبولونيوس:

- وعلى السور الشمالي يرتفع برج يحمل برجاً آخر ثم ثالثاً فرابعاً فخامساً - وهناك ثلاثة أخرى أيضاً! والثامن كنيسة فيها سرير. لا يدخل إليه أحد إلا المرأة التي يختارها الكهنة من أجل الإله بيلوس. وقد أسكنني فيها ملك بابل.

داميس:

- كانوا ينظرون إليَّ أنا أيضاً! بقيت وحيداً أتنزه في الشوارع. أخذت أستعلم عن العادات؛ وزرت الورش وتفحصت

الآلات الكبرى التي ترفع الماء إلى الحدائق. ولكني حزنت لأني فارقت معلّمي.

أبولونيوس:

– وأخيراً خرجنا من بابل على ضوء القمر، فرأينا فجأة عنقصاً[3].

داميس:

– نعم! كانت تقفز على حافرها الحديدي وتصهل كحمار، وتعدو بين الصخور. وجّه إليها شتائم فاختفت.

تساءل أنطونيوس:

– إلى أين يريدان أن يصلا؟

أبولونيوس:

– في تاكسيلا، عاصمة الخمسة آلاف قلعة، أرانا فراورتس ملك الغانج حرسه المكوّن من رجال سود تبلغ قاماتهم خمسة أذرع، وفي حدائق قصره تحت سُرادق من البروكار الأخضر، يوجد فيل ضخم، تتسلى الملكات بتعطيره. إنه فيل بوروس الذي هرب بعد موت الإسكندر.

داميس:

– والذي وِجدَ في إحدى الغابات.

أنطونيوس لنفسه:

– يتكلمان بغزارة كشخصين ثملين.

---

[3] حشرة من فصيلة السرغوفيات، يعيش معظمها في المناطق الحارة. (م)

أبولونيوس:

- أجلسنا فراورتس إلى مائدته.

داميس:

- يا لها من بلاد! السادة يتسلّون، وهم يشربون، برمي السهام تحت أقدام طفل يرقص. لكني لا أقبل...

أبولونيوس:

- حين تأهبت للرحيل، أعطاني الملك مظلّة وقال لي: "لدي على نهر الهندوس مربض للجِمال البيض. وعندما لا تعود تريد منها انفخ في آذانها فتعود."

مشينا على طول النهر، ليلاً، على ضوء اليراعات التي تلمع في حقول الخيزران. وراح العبد يغني لحناً ليبعد الثعابين؛ وأخذت الجمال تقوّس ظهورها حين تمر تحت الأشجار، وكأنها تمر تحت أبواب منخفضة جداً.

وذات يوم لاقانا طفلٌ أسود يحمل بيده صولجاناً ذهبياً، ودلّنا إلى مجمع الحكماء. حدّثني رئيسهم إيارشاس عن أجدادي، وعن أفكاري كلها وعن أفعالي كلها وعن حيواتي كلها. لقد كان نهر الهندوس وذكّرني أنني قدت سفناً في نهر النيل في زمن الملك سيزوسترس.

داميس:

- أنا لم يُقل لي شيء بحيث إني لا أعرف من كنت.

أنطونيوس لنفسه:

- يبدوان غامضين كالظلال.

أبولونيوس:

- صادفنا على شاطئ البحر القردوحات المليئة باللبن العائدة من مهمتها إلى جزيرة تاروبان. الأمواج الدافئة تدفع أمامنا لآلئ شقراء. والعنبر يطقطق تحت أقدامنا. والهياكل العظمية للحيتان تبيّض جدران الجروف الصخرية. وفي النهاية صارت الأرض أضيق من صندل؛ وبعد أن رمينا نحو الشمس قطرات من المحيط انعطفنا إلى اليمين لكي نعود.

عدنا من منطقة آرومات، من بلاد الغانغاريد، ورأس كوماريا، ومنطقة الساشاليين والأدراميين والهوميريين؛ ثم عبر جبال الكاسانيين، والبحر الأحمر وجزيرة توبازوس، دخلنا إلى أثيوبيا عبر مملكة البيغميين.

أنطونيوس لنفسه:

- ما أوسع الأرض.

داميس:

- وحين عدنا إلى بلادنا، كل من عرفناهم من قبل كانوا قد ماتوا.

طأطأ أنطونيوس رأسه بصمت.

أضاف أبولونيوس:

- عند ذلك بدأ الناس يتكلمون عني في العالم. واجتاح الطاعون مدينة أفسوس؛ وطلبت رجم متسول عجوز.

داميس:

- وذهب الطاعون!

أنطونيوس:

- ماذا؟ هل يطرد الأمراض؟

أبولونيوس:

- وفي كنيد، شفيت عاشق تمثال فينوس.

داميس:

- نعم إنه مجنون، وكان قد وعد بأن يتزوج منها. -أن يحب الرجل امرأة، لا بأس؛ أما أن يحب تمثالاً فيا للغباء!- وضع المعلم يده على قلبه وسرعان ما انطفأ الحب.

أنطونيوس:

- ماذا؟ أيخلّص من الشياطين؟

أبولونيوس:

- في تارانت، كانت فتاةٌ شابة تُحمَل ميتةً إلى المحرقة.

داميس:

- لمس المعلّم شفتيها فنهضت وهي تنادي أمها.

أنطونيوس:

- ماذا؟ ويحيي الموتى؟

أبولونيوس:

- وتوقّعتُ السلطة لفيسباسيان.

أنطونيوس:

- ماذا؟ ويرجم بالغيب؟

داميس:

- كان ذلك في كورنث.

أبولونيوس:

- لقد كنت معه على المائدة عند مياه بايا...

أنطونيوس:

- اعذراني أيها الغريبان، فقد تأخر الوقت!

داميس:

- كان هناك شاب يدعى مينيب.

أنطونيوس:

- لا! لا! اذهبا!

أبولونيوس:

- ودخل كلب يحمل في فمه يداً مقطوعة.

داميس:

- ذات مساء، في إحدى الضواحي، صادف امرأة.

أنطونيوس:

- ألا تسمعانني؟ هيا اذهبا!

أبولونيوس:

- كان يتجول بغموض حول الأسرّة.

أنطونيوس:

- كفى!

أبولونيوس:

- وأرادوا طرده.

داميس:

- عند ذلك ذهب مينيب إليها؛ وتحابّا.

أبولونيوس:

- وضع هذه اليد على ركبتي فلافيوس وهو يضرب الفسيفساء بذيله.

داميس:

- ولكن في الصباح، مع دروس المدرسة، كان مينيب شاحباً.

قال أنطونيوس قافزاً:

- أيضاً! آه! فليكملا! بما أنه لا يوجد...

داميس:

- فقال له المعلّم: "يا أيها الشاب الوسيم أنت تداعب حيّة؛ وحيّةٌ تداعبك! فمتى العرس؟" وذهبنا إلى العرس.

أنطونيوس:

- لقد كنتُ مخطئاً بكل تأكيد عندما استمعتُ إلى هذا.

داميس:

- في الردهة خدم يتحركون، والأبواب تُفتح؛ ومع ذلك لم يكن يُسمع وقع الخطوات ولا أصوات الأبواب. جلس المعلّم

قرب مينيب. وسرعان ما انتاب الغضب الخطيبة ضد الفلاسفة. ولكن الأواني الذهبية والسقاة، والطباخون، اختفوا جميعاً؛ طار السقف، وهوت الجدران؛ وظلَّ أبولونيوس وحيداً، واقفاً، وعند قدميه هذه المرأة تبكي. لقد كانت مصّاصة دماء تشبع رغبة الشبان الوسيمين، لكي تأكل لحومهم، لأنه ليس هناك أفضل من دم العاشقين بالنسبة إلى هذا النوع من الأشباح.

أبولونيوس:

– إذا أردت أن تعرف الفن...

أنطونيوس:

– لا أريد أن أعرف شيئاً!

أبولونيوس:

– ومساء وصولنا إلى أبواب روما...

أنطونيوس:

– أوه! نعم حدّثاني عن مدينة الباباوات!

أبولونيوس:

– حاذانا رجل سكران يغني بصوت جميل. إنها قصيدة زفاف نيرون، وكانت لديه القدرة على قتل كل من يُهمل الاستماع إليه. كان يحمل على ظهره، في علبة، وتراً مأخوذاً من قيثارة الإمبراطور. رفعت كتفيَّ فقذف الطين على وجوهنا. عند ذلك، فككت حزامي ووضعته في يده.

داميس:

- لقد كنت مخطئاً جداً على سبيل المثال!

أبولونيوس:

- في الليل، استدعاني الإمبراطور إلى بيته. كان يلعب بالعظيمات مع سبوروس وهو متكئ بذراعه اليسرى على طاولة من العقيق. التفت إليَّ مقطّباً حاجبيه الأشقرين وسألني: "لماذا لا تخاف مني؟" فأجبته: "لأن الله جعلك رهيباً وجعلني شجاعاً."

قال أنطونيوس لنفسه:

- ثمة شيءٌ ليس له تفسير يُرعبني.

صمت.

ثم أضاف داميس بصوت حاد:

- ومع ذلك فإن آسيا كلها يمكنها أن تقول لك...

انتفض أنطونيوس قائلاً:

- أنا مريض! اتركاني!

داميس:

- اسمع إذاً. لقد رأى من أفسوس دوميسيان يُقتل وكان في روما.

ضحك أنطونيوس رغماً عنه وقال:

- هل هذا ممكن!

داميس:

- نعم، في المسرح، في وضح النهار في الرابع عشر من شهر أكتوبر، صاح فجأة: "القيصر يُذبح!" وكان يضيف بين وقت

وآخر: "إنه يتدحرج على الأرض؛ أوه! كم ينتفض! إنه ينهض؛ يحاول أن يهرب؛ الأبواب مغلقة؛ آه! لقد قُضي الأمر! وها هو قد مات! وبالفعل، في ذلك اليوم اغتيل تيتوس فلافيوس دوميتانوس كما تعلم.

أنطونيوس:

– دون عون من الشيطان... بكل تأكيد...

أبولونيوس:

– لقد أراد أن يقتلني هذا الدوميسيان! وكان داميس قد هرب بأمر مني، وبقيت وحيداً في سجني.

داميس:

– كانت تلك جرأة رهيبة، يجب الاعتراف بذلك!

أبولونيوس:

– حوالي الساعة الخامسة، أخذني الجنود إلى المحكمة. وكانت خطبتي جاهزة تماماً أُمسك بها تحت معطفي.

داميس:

– كنا على شاطئ بوزول، نحن – الآخرين - وكنا نعتقد أنك قد مُتَّ؛ فأخذنا نبكي. لكنك ظهرت فجأة عند الساعة السادسة وقلت لنا: "ها أنا ذا!"

قال أنطونيوس لنفسه:

– مثله!

قال داميس بصوت عال:

– تماماً!

أنطونيوس:

- أوه! لا! أنتما تكذبان، أليس كذلك؟ أنتما تكذبان!

أبولونيوس:

- هو هبط من السماء، وأنا أصعد إليها، - بفضل فضيلتي التي رفعتني إلى صف المبدأ!

داميس:

- لقد بَنَت مدينة تيان، مسقط رأسه، على شرفه معبداً مع كهنة.

اقترب أبولونيوس من أنطونيوس وصرخ في أذنه:

ذلك لأني أعرف الآلهة جميعاً، والطقوس كلها والصلوات كلها والهواتف الإلهية كلها! وقد دخلت إلى كهف تروفونيوس، ابن أبولون! لقد عجنت للسيراقوسيين الكاتوهات التي يحملونها إلى الجبال! ولقد خضعت للثمانين امتحاناً لميثرا! وضممت إلى قلبي ثعبان ساباسيوس! وتلقّيت منديل الكبير! وغسلت سيبيل في أمواج الخلجان الكامبانية، وأمضيت ثلاثة أشهر في كهوف ساموتراس!

قال داميس وهو يضحك ببطء:

- آه! آه! آه! لأسرار الإلهة الطيبة!

أبولونيوس:

- وها نحن الآن نبدأ الحج من جديد! إننا نذهب باتجاه الشمال من جهة طيور اليم والثلوج. وعلى السهل الأبيض،

أفراس النهر العمياء تكسر برؤوس أقدامها نبات ما وراء البحار.

داميس:

– تعال! إنه الفجر. الديك يصيح والحصان يصهل والقارب الشراعي جاهز.

أنطونيوس:

– الديك لم يصِح! وأنا أسمع الجدجد في الرمال، وأرى القمر ما يزال في مكانه.

أبولونيوس:

– سنذهب إلى الجنوب، خلف الجبال والأمواج الكبرى لنبحث في العطور عن سبب الحب. سوف تشم رائحة المر التي تقتل الضعاف. وستغطّس جسمك في بحيرة الزيت الوردي في جزيرة جونونيا. وسترى وأنت نائم أزهار الربيع، والسحلية التي تستيقظ كل قرن حين تسقط الياقوتة الجمرية من جبينها عند نُضجها. النجوم تلمع كالعيون، والشلالات تُغني كالقيثارات، ويضوع عبير الأزهار المتفتحة؛ وستوسع روحك في الهواء وسيتوسع قلبك أيضاً.

داميس:

– معلّمي! لقد آن الأوان! الريح ستهبُّ، والسنونوات تستيقظ، وورقة الآس طارت!

أبولونيوس:

- نعم! لنذهب!

أنطونيوس:

- لا! أنا سأبقى!

أبولونيوس:

- هل تريد أن أعلمك أين تنمو نبتة باليس التي تُحيي الأموات؟

داميس:

- اطلب منه بالأحرى الأندروداماس الذي يجذب الفضة والحديد والبرونز.

أنطونيوس:

- أوه! كم أتألم! كم أتألم!

داميس:

- سوف تفهم أصوات جميع الكائنات والزئير والهديل!

أبولونيوس:

- سوف أُصعدك على ظهور أُحاديات القرن والتنينات والسنتورات والدلافين!

أنطونيوس يبكي:

- أو! أوه! أوه!

أبولونيوس:

– سوف تعرف الشياطين التي تسكن الكهوف، وتلك التي تتكلم في الغابات، وتلك التي تُحرك الأمواج، وتلك التي تدفع الغيوم.

داميس:

– شدَّ حزامك! واربط صندلك!

أبولونيوس:

– سوف أشرح لك سبب الأشكال الإلهية: لماذا أبولون واقف، وجوبيتر جالس ولماذا فينوس سوداء في كورنث ومربّعة في أثينا ومخروطية في بافوس.

قال أنطونيوس ضاماً يديه:

– فليذهبا! فليذهبا!

أبولونيوس:

– سوف أنتزع من أمامك أبنية الآلهة وسنقتحم المعابد المقدّسة وسأجعلك تغتصب بيتي!

أنطونيوس:

– النجدة يا ربّاه!

وأسرع نحو الصليب.

أبولونيوس:

– ما هي رغبتك؟ ما هو حلمك؟ زمن التفكير فيهما فقط....

أنطونيوس:

– يسوع! يسوع! ساعدني!

أبولونيوس:

– هل تريد أن أُظهر يسوع؟

أنطونيوس:

– ماذا؟ كيف؟

أبولونيوس:

– سيكون هو! وليس غيره! سيرمي تاجه وسنتحدث وجهاً لوجه!

قال داميس بصوت خافت:

– قل إنك تريد ذلك! قل إنك تريد ذلك!

وقف أنطونيوس عند أسفل الصليب وهمس بصلوات. دار داميس حوله بحركات متملّقة، ثم قال:

– يا أيها الناسك الطيب، يا عزيزي القدّيس أنطونيوس! أيها الرجل النقي المشهور! أيها الرجل الذي لا نستطيع أن نمتدحه كفاية لا تخف؛ إنها طريقة للقول مبالغ فيها، أخذناها عن الشرقيين. وهذا لا يمنع أبداً...

أبولونيوس:

– دعه يا داميس! إنه يؤمن كشخص متوحش بواقع الأشياء. الخوف الذي لديه من الآلهة يمنعه من فهمها؛ وهو ينقص من قدر إلهه إلى مستوى ملك غيور!

وأنت يا بني لا تتركني!

تراجع حتى اقترب من حافة الجرف الصخري وتجاوزه وظلّ معلقاً.

– فوق كل الأشكال، وأبعد من الأرض، وما وراء السموات يُقيم عالم الأفكار، الممتلئ بالكلمة! سوف نجتاز الفضاء الآخر؛ وسنقبض في لا نهايته على الأبدي، المطلق، الكينونة! – لنذهب! أعطني يدك! إلى الأمام!

وارتفع الاثنان في الهواء ببطء جنباً إلى جنب.

عانق أنطونيوس الصليب ونظر إليهما وهما يصعدان حتى اختفيا.

5

قال أنطونيوس وهو يمشي ببطء:

- هذا يعادل الجحيم كله! لم يهرني نبوخذ نصّر، ولم تسحرني بعمق شديد ملكة سبأ. طريقته في الكلام عن الآلهة توحي برغبة في معرفتها. أتذكّر أني رأيت مئات في آن واحد في جزيرة إليفونتين في زمن ديوكليسيان. لقد تنازل الإمبراطور للرحّل عن بلد كبير بشرط أن يحرسوا الحدود، ووقّعت المعاهدة باسم "قوى خفيّة". لأن آلهة كل شعب كانت مجهولة من الشعب الآخر. أتى البربر بآلهتهم. كانوا يحتلّون الهضاب الرملية التي تحاذي النهر. وقد شوهدوا وهم يحملون معبوداتهم على أذرعهم كأطفال كبار مشلولين، أو وهم يبحرون وسط الشلالات على جذع نخلة، ويُظهرون من بعيد التعاويذ في رقابهم، والوشم على صدورهم؛ وهذا ليس أكثر إجراماً من دين اليونانيين والآسيويين والرومان!

عندما كنت أسكن معبد هيليوبوليس، غالباً ما تأملت كل ما يوجد على الأسوار: صقور تحمل صولجانات، وتماسيح تعزف على القيثارات، ووجوه رجال على جسم أفعى، ونساء

لهنّ رأس بقرة ساجدات أمام آلهة إيتيفاليك وأشكالهنّ غير الطبيعية سحبتني نحو عوالم أخرى. كنت أريد أن أعرف إلى ما تنظر هذه العيون الهادئة.

لكي يكون للمادة هذه القدرة، يجب أن تحوي روحاً، روح الآلهة مرتبطة بصورها...

من لديهم جمال المظهر يمكنهم أن يُغووا. أما الآخرون.... الذين هم منحطون ورهيبون، فكيف نؤمن بهذا؟...

ورأى على وجه الأرض مرور أوراق أشجار وحجارة وقواقع وأغصان أشجار، وتمثيلات غامضة لحيوانات، ثم أنواع من الأقزام مصابين باستسقاء، إنهم آلهة. انفجر ضاحكاً.

وانفجرت ضحكة أخرى خلفه؛ وظهر هيلاريون، بلباس الناسك، أطول بكثير مما كان منذ قليل، بل هو عملاق.

لم يُفاجأ أنطونيوس برؤيته، وقال:

– كم يجب أن يكون الإنسان أحمق ليعبد هذا!

هيلاريون:

– أوه! نعم، أحمق إلى أقصى الحدود.

عند ذلك مشت أمامهما معبودات من الأمم كلّها، ومن العصور كلّها، من الخشب والمعدن والغرانيت، لها ريش، وجلود مخيطة.

الأقدام، السابقة للطوفان، تختفي تحت طحالب تبيض ما يشبه الأعراف. وبعضها، وهي طويلة جداً، على قاعدتها،

تطقطق في نقاط التحامها وتنكسر وهي تمشي. وبعضها الآخر يدَع الرمل يسيل من ثقوب في بطونها.

استمتع أنطونيوس وهيلاريون كثيراً، وأمسكا خاصرتيهما من فرط الضحك.

وبعد ذلك مرت المعبودات التي لها شكل خروف. إنها تترنّح فوق سيقانها القفداء، وتفتح قليلاً عيونها وتتأتئ مثل البكم: "با!با!با!"

كلما اقتربت من النموذج البشري، أثارت حدّة أنطونيوس أكثر. أخذ يضربها بقبضته، ويرفسها، وانقض عليها.

أصبحت مروِّعة - مع ريش طويل مرتفع، وعيون كروية، وأذرع منتهية بمخالب، وأفكاك أسماك القرش.

وأمام هذا الإله يُذبح رجال على مذابح حجرية؛ وآخرون يسحقون في قدور، أو تحت العربات، أو يُربطون إلى أشجار. وهناك واحد منهم، من الحديد المحمّر، له قرنا ثور، يفترس أطفالاً.

أنطونيوس:

- يا للهول!

هيلاريون:

- ولكن الآلهة يطلبون عذابات دائماً. وإلهك أراد ذلك...

قال أنطونيوس وهو يبكي:

- أوه، لا تكمل! اسكت!

تحول الحوض إلى واد، وأخذ قطيعٌ من العجول يرعى العشب المقطوع. الراعي الذي يقوده، يراقب الغيمة؛- وأطلق في الهواء صوتاً حادّاً، كلاما آمراً.

هيلاريون:

- ما أحوجه إلى المطر! هو يحاول، بأغانٍ، أن يجبر ملك السماء على فتح الغيوم الخصبة.

قال أنطونيوس ضاحكاً:

- هذا صلَفٌ غبيّ جداً!

هيلاريون:

- لماذا تمارس طرد الشياطين؟

أصبح الوادي بحراً من اللبن، جامداً، بلا حدود.

وفي وسطه يعوم مهد طويل، مكون من التفافات أفعى، تميل رؤوسها كلها في آن واحد لكي تظلّل إلهاً نائماً تحت جسمها.

إنه شاب، أمرد، أجمل من فتاة ومغطى بحجب شفافة، لآلئ تاجه تلمع بهدوء كأقمار، وسبحة من النجوم تدور عدة دورات حول صدره؛- يضع ذراعاً تحت رأسه، وذراعه الأخرى ممدودة، إنه يستريح بهيئة حالمة ومغتبطة. وأمام ساقيه تقرفص امرأةٌ منتظرة استيقاظه.

هيلاريون:

- إنها الثنائية الأول للبراهمانات،- المطلق لا يُعبّر عن نفسه بأي شكل.

وعلى سُرّةِ الإله نمت ساق لوتس، وفي كأسه يبدو إله آخر له ثلاثة وجوه.

أنطونيوس:

- يا له من اختراع!

هيلاريون:

- الآب والابن والروح القدس لا تكوّن إلا شخصاً واحداً!

ابتعدت الرؤوس الثلاثة، وظهر ثلاثة آلهة كبار.

الأول، الوردي اللون، يعضّ إصبع قدمه. والثاني، الأزرق، يحرّك أربع أذرع. والثالث، الأخضر، يضع قلادة من الجماجم البشرية.

وأمامهم، مباشرة تظهر ثلاث إلاهات، الأولى متدثّرة بشبكة، والثانية تقدم كأساً، والثالثة تحمل قوساً.

وهؤلاء الآلهة والإلاهات يتزاوجون، ويتكاثرون. على أكتافهم تنمو أذرع، وفي أطراف أذرعهم أيادٍ تحمل رايات، وفؤوساً ودروعاً، وسيوفاً، ومظلات وطبولاً. تنفجر عيون ماء من رؤوسهم، وينزل عشب من مناخيرهم.

يمتطون طيوراً، وتهدهدهم محفّات، ويجلسون على عروش ذهبية، ويقفون في أعشاش عاجية، يفكرون، يسافرون، يأمرون، يشربون الخمر، ويشمّون الأزهار. راقصات يدرن، وعمالقة يتبعون وحوشاً. وعند مدخل المغاور، نسّاك يتأمّلون. لا تُميَّز بآبئ العيون من النجوم، ولا الغيوم من اللافتات؛ وطواويس ترتوي من جداول ذهبية، وتطريز السرادقات يختلط مع بقع الفهود، وأشعة ملونة تتشابك في الهواء الأزرق مع سهام تتطاير، ومباخر تؤرجَح.

وهذا كله يتقدم كإفريز عالٍ، مركّزاً أساسه على صخور، وصاعداً إلى أعالي السماء.

قال أنطونيوس مبهوراً:

– يا لها من كمية! ماذا يريدون؟

هيلاريون:

– من يهرش بطنه بخرطوم الفيل، هو الإله الشمسي، موحي الحكمة. والآخر الذي له ستة رؤوس تحمل أبراجاً، وله الأربع عشرة ذراعاً تحمل رماحاً، هو أمير الجيوش، النار المفترسة. والعجوز الذي يمتطي ظهر تمساح سيغسل على الشاطئ أرواح الأموات، وستعذّبها هذه المرأة السوداء ذات الأسنان المسوّسة، المسيطِرة على الجحيم.

والعربة التي تجرّها خيول حمراء، والتي يقودها حوذي ليس له ساقان، ينزّهُ سيدَ الشمس في السماء اللازوردية. وإله القمر يرافقه في محفّة تجرها ثلاثة غزلان. والجاثية على ركبتيها على ظهر ببغاء، هي إلهة الجمال تقدّم لابنها حب ثديها المستدير. ها هي أبعد، تقفز في المروج. انظرا! انظرا! تعتمر قبعة طويلة مبهرة، تعدو على القمح، وعلى الأمواج، وتصعد في الهواء، وتتمدّد في كل مكان!

وبين هؤلاء الآلهة يقيم جنّ الرياح والكواكب والأشهُر والأيام ومائة ألف جني آخر! وأشكالها متعدّدة، وتحولاتها سريعة. وهذا واحد منها تحوّل من سمكة إلى سلحفاة. وها هو يتخذ رأس خنزير بري، وقامة قزم.

أنطونيوس:

- ولماذا يفعل هذا؟

هيلاريون:

- لكي يعيد التوازن، ولكي يصارع الشر. ولكن الحياة تنفد، والأشكال تفنى، ويجب عليهم أن يتقدّموا في تحوّلاتهم.

وفجأة يظهر رجل عارٍ، جالساً وسط الرمال، مقاطعاً ساقيه.

هالة واسعة تهتز، معلّقة خلفه. الحلقات الصغيرة لشعره الأسود، ومع انعكاس اللازورد، تحيط بصورةٍ متناظرة بنتوء في أعلى رأسه. ذراعاه الطويلتان جداً، تنزلان مباشرة على

خاصرتيه. ويداه، المفتوحتا الراحتين، تستريحان براحتيهما على فخذيه. أسفل قدميه يقدم صورة شمسَيْن اثنتين؛ وظل جامداً تماماً- مقابل أنطونيوس وهيلاريون،- مع الآلهة جميعاً، من حوله، متدرجين على الصخور كما على أدراج سيرك.

انفرجت شفتاه؛ وقال بصوت عميق:

– أنا سيد الحسنة الكبرى، عون المخلوقات. أعرض القانون على المؤمنين كما المدنّسين.

ولكي أخلّص العالم وُلدتُ بين البشر. بكى الآلهة عندما ظهرتُ. بحثتُ في البداية عن امرأة مناسبة: من عرق عسكري، زوجة ملك، طيبة جداً، وجميلة إلى أقصى الحدود، وسرّها عميقة، وجسمها كماسة؛ وعندما يكون القمر بدراً، دون مساعدة أي ذكر، دخلتُ إلى بطنها. وخرجت منه عن طريق الخاصرة اليمنى. فتوقّفت نجوم.

تمتم هيلاريون محدّثا نفسه:

– وحين رأوا النجمة وقد توقّفت، انتابهم فرح عارم.

نظر أنطونيوس بانتباه أكبر.

إن بوذا هو من أضاف:

– من عمق هيمالايا سعى رجل دين عمره مائة سنة لمقابلتي.

هيلاريون:

- "رجل يُدعى سمعان، لا بدّ أنه لم يمت قبل أن يرى المسيح!"

بوذا:

- أخذوني إلى المدارس، وكنتُ أعرف فيها أكثر من المعلّمين.

هيلاريون:

- "... وسط المعلمين؛ وكل من كان يسمعونه كانوا مغتبطين بحكمته."

أشار أنطونيوس إلى هيلاريون بأن يصمت.

بوذا:

- كنتُ أتأمّل في الحدائق باستمرار؛ كانت ظلال الأشجار تدور؛ ولكن ظل من كان يحميني لم يكن يدور.

لا أحد يستطيع أن يضاهيني في معارف الخطوط وأعداد الذرات، وسلوك الفِيَلة، وأعمال الشمع، وعلم الفلك والشعر، والقتال، كل هذه التمرينات وهذه الفنون!

ولكي ألتزم بالعرف، اتّخذتُ زوجة؛ - وكنتُ أمضي الأيام في قصري الملكي، مرتدياً اللآلئ، تحت مطر العطور، تحيط بي المذبّات لثلاثة وثلاثين ألف امرأة، أنظر إلى شعبي من أعالي أسطحي، المزينة بأجراس صغيرة رنّانة.

ولكن رؤية مصائب العالم حوّلتني عن المسرّات، فهربت.

تسوّلتُ في الطرقات، وجسمي تغطّيه أسمال ملمومة من القبور. ولما كان هناك ناسك عالم جداً، أردتُ أن أصبح عبدَه، فحرست بابه، وغسلتُ قدميه.

انعدم كل إحساس، وكل فرح، وكل هوى لديّ. ثم ركّزتُ تفكيري في تأمّلٍ أوسع، فعرفتُ جوهر الأشياء، ووهم الأشكال. وسرعان ما أفرغتُ علم البراهمانات. هؤلاء الذين ينهشهم الجشع تحت مظاهرهم المتقشّفة، ويحكّون جلودهم بالقذارات، وينامون على الأشواك، معتقدين أنهم يصلون إلى السعادة عن طريق الموت.

هيلاريون:

– "فرّيسيون، منافقون، قبور مبيّضة، جنس أفاعٍ!"

بوذا:

– أنا أيضاً، قمتُ بأشياء مدهشة؛ إذ لم أكن آكل في اليوم إلا حبة أرز، وحبات الأرز لم تكن في ذلك اليوم أكبر مما هي في الوقت الحاضر؛ فسقط شعر جسمي، وصار جسمي أسود، ودخلت عيناي في محجريهما، فبدتا كنجومٍ مشاهَدةٍ في قاع بئر.

بقيتُ جامداً طوال ست سنوات، معرَّضاً للذباب وللأسود والثعابين، والشموس الساطعة، والأمواج الهائلة، والصواعق

والجليد والعواصف، كنتُ أتلقّى هذا كله، حتى دون أن أحمي نفسي بيدي. وكان المسافرون يعتقدون أني قد متّ فأخذوا يحثون علي التراب!

اشتقتُ إلى إغواء الشيطان. فناديته.

أتى أبناؤه؛ إنهم كريهون، مغطّون بالحراشف، ومثيرون للاشمئزاز كالجيف، يعوون ويصفرون ويخورون، يصدمون الأبنية وعظام الأموات. بعضهم يبصقون اللهب من مناخيرهم، وبعضهم الآخر يصنعون ظلاماً بأجنحتهم، وبعضهم الثالث يحملون سبحات من أصابع مقطوعة، وبعضهم الرابع يشربون سم الأفاعي على راحات أيديهم؛ لهم رؤوس خنازير ووحيدي قرن وعلجومات وكل أنواع الوجوه التي توحي بالاشمئزاز والرعب.

يقول أنطونيوس لنفسه:

– لقد قاسيتُ هذا في الماضي.

بوذا:

– ثم أرسل إليّ بناته؛ كن جميلات، متبرّجات جيداً، يتحزّمن بأحزمة ذهبية، ولهن أسنان بيضاء كالياسمين، وأفخاذ ملتفة كخرطوم الفيل. بعضهن يمددن أذرعهن وهن يتثاءبن لكي يُظهرن حفر مرافقهن؛ وبعضهن الآخر يغمزن بعيونهن، وبعضهن الثالث يضحكن، وبعضهن الرابع يفتحن

ثيابهن. هناك عذراوات يشعرن بالحياء، وسيدات مليئات بالتكبّر، وملكات مع حاشية كبيرة من الأمتعة والعبيد.

قال أنطونيوس لنفسه:

– آه! هو أيضاً؟

بوذا:

– بعد أن غَلَبتُ الشيطان، أمضيت اثني عشر عاماً أتغذّى بالعطور حصراً- ولما كنتُ قد اكتسبتُ الفضائل الخمس، والملَكات الخمس، والقوى العشر، والجواهر الثماني عشرة، ودخلتُ في كرات العالم الخفي الأربع، كان الذكاء لي! فأصبحتُ بوذا.

رفع يده عالياً في الهواء وأضاف:

– لكي أُخلِّص الكائنات، قدّمتُ مئات آلاف التضحيات! فقد أعطيتُ الفقراء أثواباً من الحرير، وأسرّة وعربات، وبيوتاً، وأكواماً من الذهب والماس. أعطيتُ يديَّ لمبتوري الأيدي، وساقيّ للعرجان، وبؤبؤيّ للعميان، وقطعتُ رأسي لأعوّض به من قُطعت رؤوسهم. حين كنتُ ملكاً، وزّعتُ المقاطعات، وحين كنتُ براهمان، لم أحتقر أحداً، وحين كنتُ ناسكاً، قلتُ الكثير من الكلام الطيّب للّص الذي ذبحني. وحين كنتُ نمراً، تركتُ نفسي أموت جوعاً.

وفي هذه الحياة الأخيرة، بعد أن وعظتُ القانون، لم يعد لديّ ما أفعله. فالفترة الكبرى انتهت! البشر والحيوانات والآلهة والخيزران والمحيطات والجبال وحبات الرمل والأنهار من مئات آلاف النجوم، كل شيء سيموت؛ وحتى الولادات الجديدة ستموت، وسيرقص اللهب على خرائب العالم المهدّمة!

عندئذ سيصاب الآلهة بالدوار، سيترنّحون ويسقطون من الاختلاجات، ويتقيّؤون حيواتهم. وتنفجر تيجانهم، وتطير راياتهم. سينتزعون أحشاءهم وأعضاءهم الجنسية، ويلقون فوق أكتافهم أكواباً كانوا يشربون فيها الخلود، ويختنقون بأفاعيهم، ويغمى عليهم من الدخان؛- وعندما يختفي كل شيء...

قال هيلاريون بهدوء:

- لقد رأيتَ توّاً معتقد مئات ملايين البشر!

أنطونيوس جالس على الأرض، محتوياً رأسه بيديه. ووقف هيلاريون بجانبه، ينظر إليه مديراً ظهره إلى الصليب.

مضى زمن لا بأس به. ثم ظهر بعد ذلك كائن غريب، له رأس إنسان وجسم سمكة. يتقدم بخط مستقيم في الهواء، ويضرب الرمل بذيله؛- فأثار هذا الوجه للبطريق مع أذرعه الصغيرة، ضحِكَ أنطونيوس.

قال أوانيس بصوت شاكٍ:

- احترمني! فأنا معاصر للأصول.

لقد سكنتَ في العالم عديم الشكل حيث كانت الحيوانات الخنثى. تحت ثقل جوّ كتيم، في عمق الأمواج المظلمة، حين كانت الأصابع والزعانف والأجنحة ما تزال مختلطة، والعيون بلا رأس ترفرف كرخويات، بين ثيران ذات وجوه بشرية، وثعابين ذات قوائم كلب.

على مجموع هذه الكائنات، بسطَتْ أومواكا، المنطوية كطوق، جسمها كامرأة. لكن بيلوس قطعها تماماً إلى نصفين، فصنع الأرض من نصفها الأول، والسماء من الثاني. والعالمان المتشابهان يتكاملان بالتبادل.

أنا الوعي الأول للعماء، ظهرتُ من الهاوية لكي أُصلِّب المادة، وأضبط الأشكال؛ ولقد علّمتُ البشر الصيد وبذر الأرض والكتابة وتاريخ الآلهة.

منذ ذلك الحين، وأنا أعيش في المستنقعات التي بقيت من الطوفان. ولكن الصحراء تكبر من حولها، والرياح ترمي فيها الرمال، والشمس تفترسها؛- أموت على طبقتي؛ طبقة الطمي، وأنا أراقب النجوم عبر الماء. وسأعود إليها.

وقفز واختفى في النيل.

هيلاريون:

— إنه إله قديم، من آلهة الكلدانيين.

قال أنطونيوس ساخراً:

- وماذا كان آلهة بابل؟

هيلاريون:

- يمكنك أن تراهم!

ووجدا نفسيهما على سطيحة برج مربّع الزوايا يشرف على ستة أبراج أضيق منه، كلّما ارتفعت شكّلت هرماً وحشياً. وميّزا في الأسفل كتلة سوداء؛- إنها المدينة بلا شك؛- ممتدّة في السهول. الهواء بارد، والسماء ذات زرقة داكنة؛ والنجوم الكثيرة تلمع.

في وسط السطيحة، ينتصب عمود من الحجر الأبيض. وكهنة بأثواب من الكتان يروحون ويجيئون من حوله، بحيث إنهم يشكّلون بدوراناتهم دائرة متحركة، ويتأمّلون النجوم برأس مرفوع.

قال هيلاريون وهو يشير إلى بعضهم للقديس أنطونيوس:

- هناك ثلاثون كاهناً رئيساً؛ خمسة عشر ينظرون فوق الأرض، وخمسة عشر تحتها. وبفواصل زمنية منتظمة يندفع أحدهم من المناطق العليا نحو المناطق السفلى، في حين أن آخر يغادر الدنيا لكي يصعد إلى السماء.

من الكواكب السبعة، هناك اثنان خيّران، واثنان سيئان، وثلاثة كواكب غامضة. كل شيء في العالم يتعلّق بهذه النيران الأبدية. بحسب وضعها وحركتها يمكن أن تؤخذ تكون

التفاؤلات:- وأنت تطأ المكان الأكثر احتراماً على الأرض. فقد التقى فيه فيثاغورث وزرادشت، وها هي اثنا عشر ألف سنة وهؤلاء البشر يراقبون السماء، لكي يعرفوا الآلهة معرفة أفضل.

أنطونيوس:

- النجوم ليست آلهة.

هيلاريون:

- نعم، يقولون؛ لأن الأشياء تمر من حولنا، والسماء، كالأبدية، تظل خالدة.

أنطونيوس:

- ومع ذلك فإن لها سيداً.

قال هيلاريون مشيراً إلى العمود:

- هذا، بيلوس، الشعاع الأول، الشمس، الذكر - والآخر، الذي يُخصبه، تحته.

لمح أنطونيوس حديقة مضاءة بالمصابيح.

إنه وسط الجمهور في جادة من أشجار السرو. إلى اليمين وإلى اليسار دروب صغيرة تؤدي إلى أكواخ مقامة في غابة من الرمّان، محمية بأسوار من القصب.

معظم الرجال يعتمرون طاقيات مدبّبة ويرتدون أثواباً مزركشة كريش الطاووس. ثمة أشخاص من الشمال يرتدون جلود دببة، ورحّل يرتدون معاطف صوفية بنية،

وغانغاريديات[4] شاحبات بأقراط طويلة؛ الصفوف، كالأمم، تبدو مختلطة، لأن البحارة وقاطعي الحجارة يرافقون أمراء يضعون تيجاناً من البهرمان، وعصي تفاح مرصّعة. وكلّهم يمشون موسّعين مناخيرهم، تجمعهم رغبة واحدة.

بين وقت وآخر، يقطعون صفوفهم ليتركوا ممراً لعربة طويلة مغطّاة، تجرها عجول؛ أو هو حمار يهزّ على ظهره امرأة مغطّاة بحجُب، ويختفي نحو الأكواخ أيضاً.

خاف أنطونيوس؛ أراد أن يرجع إلى الخلف، ومع ذلك فإن فضولاً عصياً على التعبير يسحبه.

عند أسفل أشجار السرو، نساء مقرفِصات في صف على جلود وعول، وكلّهن يعتمرن تيجاناً من الحبال. بعضهن، وهن بملابس رائعة، ينادين المارّة بأصوات عالية. وهناك من هن أكثر حياء، يغطّين وجوههن بأذرعهن، بينما في الخلف سيدة، هي أمهنّ بلا شك، تحثّهن.. وأخريان غطّين رؤوسهن بشالات سوداء، وأجسادهن عارية تماماً، يلُحن من بعيد كتماثيل من لحم. وما إن يرمي لهن رجل نقوداً على ركبهن، حتى ينهضن.

وتُسمع قُبَلٌ تحت أوراق الأشجار- وأحياناً صرخة قوية حادة.

---

[4] نساء نهر الغانج. م.

هيلاريون:

– إنهن عذراوات بابل يتعهّرن على طريقة الإلهة.

أنطونيوس:

– أية إلهة؟

هيلاريون:

– هذه هي!

ويُريه في نهاية الجادة، على عتبة مغارة مضاءة، كتلة من الحجارة تمثل العضو الجنسي الأنثوي.

أنطونيوس:

– دناءة! أي عمل بشع أن تهب عضوها للإله!

هيلاريون:

– أنت تتخيّلها كشخص حي!

عاد أنطونيوس إلى الظلمات.

لمح في الهواء دائرة مضيئة، موضوعة على أجنحة أفقية.

هذا النوع من الخواتم يحيط، كحزام رخو، بخصر رجل يعتمر قبعة طويلة، ويحمل تاجاً بيده، والجزء السفلي منه يختفي كلّه تحت ريش كبير ممتد على شكل تنورة.

إنه هرمز، إله الفرس.

يطير قليلاً صارخاً:

– أنا خائف، ألمح فمه.

لقد غلبتك يا أهريمان، ولكنك تبدأ من جديد!

في البداية، عندما تمرّدتَ ضدي، أفنيتَ أكبر المخلوقات، كايومورتز، الرجل - الثور. ثم أغويت أول زوجين بشريين: ميشيا وميشيان؛ ونشرتَ الظلمات في القلوب، ودفعتَ كتائبك المقاتلة نحو السماء.

وكان لدي كتائبي، وشعب النجوم، وكنتُ أتأمّل تحت عرشي كل النجوم المصطفة.

كان ابني ميثرا يسكن في مكان لا يُطال. يستقبل الأرواح، ويُخرجها، ويستيقظ كل صباح لينثر ثروته.

كانت روعة القبة السماوية منعكسة بوساطة الأرض. النار تشعّ على الجبال،- صورة النار الأخرى التي خلقتُ منها الكائنات جميعاً. ولحمايتها من النجاسات، لم يكن الأموات يُحرقون، بل كانت مناقير الطيور تحملهم نحو السماء.

لقد نظّمتُ المراعي، والحراثات، وغابات القربان، وشكل الكؤوس، والكلام الذي يجب أن يُقال في الأرق؛- وكان كهنتي في صلوات دائمة لكي يحصل المديح على أبدية الله، فكانوا يتطهّرون في الماء، ويقدمون الخبز على مذابح، ويعترفون بجرائمهم بصوت عال.

هوما سقى البشر لكي ينقل إليهم قوته.

بينما كان جنّ السماء يقاتلون الشياطين، وأبناء إيران يطاردون الأفاعي، كان الملك؛ الذي يخدمه بلاطٌ كامل ورجاله الذين لا يعدّون ولا يُحصون جاثون على ركبهم، يشكّل شخصي، ويحمل تاجي. وكان لحدائقه روعة الأرض السماوية، وكان قبرُه يمثله وهو يذبح وحشاً؛ إنه شعار الخير وهو يقضي على الشر.

لأن عليّ يوماً أن أقهر أهريمان بصورة نهائية، بفضل الزمن غير المحدود.

لكن الفاصل الزمني بيننا نحن - الاثنين - يختفي؛ والليل يصعد، إليّ أيها الأمشاسباند والإيزاد والفيرور! النجدة يا ميثرا! استلّ سيفك! وأنت يا كاوزياك الذي يجب أن يعود من أجل الخلاص الكوني، دافع عني!... ماذا؟... لا أحد!

آه! أنا أموت! أهريمان أنت السيد!

كبح هيلاريون صرخة فرح وهو واقف خلف أنطونيوس- وغاص هرمز في الظلمات.

وعند ذلك ظهرت ديانا العظيمة من أفسس.

سوداء بعينيها المصنوعتين من الميناء. ومرفقاها على خاصرتيها، وساعداها متباعدان، ويداها مفتوحتان.

وكانت هناك أسود تتسلّق كتفيها، وفواكه وأزهار ونجوم تتقاطع على صدرها، وإلى الأسفل يصطف ثلاثة صفوف من الأثداء؛ ومن البطن حتى القدمين، هي مغلفة بغلاف ضيق،

يندفع منه عند وسط جسدها ثيرانٌ ووعول وصقور ونحل.- وتشاهد على الضوء الأبيض الذي يصنعه قرص فضّي مستدير كالبدر، موضوع خلف رأسها.

- أين معبدي؟ وأين فارساتي؟

ما بي إذاً... أنا العصية على الفساد، ها هو الانحلال ينتابني!

ذوت أزهارها، وسقطت ثمارها الناضجة جداً. وحَنَت الأسود والثيران رقابها، ورالت الوعول منهكة، ومات النحل أرضاً وهو يطنّ.

ضغطت أثداءها الواحد تلو الآخر؛ كلها خاوية. ولكن غلافها انفجر تحت انعكاس يائس، أمسكته من الأسفل، كطرف فستان، ورمت عليه حيواناتها، ونباتاتها، ثم عادت إلى الظلمة.

وفي البعيد، تهمس أصوات، تزأر، وتهدر وتخور. ازدادت كثافة الليل، بوساطة الأنفاس. وسقطت قطرات مطر حار.

قال أنطونيوس:

- ما أزكى راحة النخيل! وما أجمل حفيف الأوراق! وما أعذب مياه النبع! أريد أن أنبطح على الأرض لكي أشعر بها في قلبي، وتتبلّل حياتي من جديد بشبابها الأبدي!

سمع أصوات صنوج، - ووسط جمهور ريفي، رجال يرتدون أثواباً بيضاء، ذات عصبات حمراء، يقودون حماراً مُسرَجاً بفخامة، وذيله مزيّن بأشرطة، وحوافره ملوّنة. وصندوق مغطّى

بغلاف أصفر، يتأرجح على ظهره، بين سلّتين؛ الأولى تستقبل التقدِمات التي يوضع فيها: بيض وعنب وجبن ودواجن وقطع نقدية صغيرة؛ والثانية مليئة بالورود التي ينثر قادة الحمار أوراقها أمامهم وهم يمشون. ولديهم أقراط، ويرتدون معاطف طويلة، وشعورهم مضفورة، وخدودهم مصبوغة، وتاج من أغصان الزيتون ينعقد حول جباههم، مع ميداليات عليها صور. وخناجر مشكولة في أحزمتهم، يهزّون سياطاً أنصبتها من الأبنوس، ولديهم ثلاثة محفّات مزينة بعظيمات.

وأواخر الموكب، يضعون على الأرض صنوبرة كبيرة، منتصبة أمامهم كشمعدان، تشتعل قمّتها، وأغصانها الأدنى تظلّل خروفاً.

توقف الحمار، وسُحب الغطاء، يوجد تحته غطاء آخر من اللباد الأسود. عند ذلك يبدأ الرقصَ أحدُ الرجال الذين يرتدون ثوباً أبيض، ويلعب بالأجراس، وجثا آخر أمام الصندوق، وراح يقرع الطبل.

وبدأ الرجل الأكبر سناً في المجموعة الكلامَ قائلاً:

– هذه هي الإلهة الطيبة، إيدين الجبال، جدة سوريا! اقتربوا، أيها الناس الطيبون؛ إنها توفّر الفرح، وتشفي المرضى، وترسل ميراثات، وترضي العشّاق. نحن من ننزّهها في الأرياف في الطقس الجيد والسيئ.

غالباً ما ننام في الهواء الطلق، وليس لدينا كل يوم مائدة عامرة. اللصوص يسكنون الغابات. والحمقى يندفعون من كهوفهم. دروب زلقة تحيط بالهاويات، ها هي! ها هي!

ورفعوا الغطاء، فظهر صندوق، مزيَّن بحصى صغيرة.

أعلى من أشجار الأرز، تحلّق في الأثير الأزرق. أوسع من الرياح، تحيط بالعالم. وتنفُّسها يخرج من أنوف نمور؛ وصوتها يهدر تحت البراكين، غضبها هو العاصفة؛ وشحوب وجهها بيَّضَ القمر.

هي تُنضج المواسم، وتنفخ القشور، وتُنبت اللحى، أعطوها شيئاً ما، فهي تكره البخلاء!

فُتح الصندوق، وظهر تحت سرادق من الحرير الأزرق، صورة صغيرة لسيبيل؛ تشعّ برقاتُها، متوّجة بأبراج وجالسة في عربة من الأحجار الحمراء، يجرّها أسدان يرفعان قائمتيهما.

تدافع الجمهور لكي يرى.

وأضاف الرجل العجوز:

– هي تحب رنين السناطير، وخبط الأقدام، وعواءات الذئاب والجبال الصائتة، والحناجر العميقة، وزهر اللوز، والرمان والتين الأخضر، والرقصة التي تدور، والمزامير التي تشخر، والنسغ المحلّى والدمعة المالحة، الدم لكِ يا أم الجبال!

يجلدون أنفسهم بسياطهم، فترنّ الضربات على صدورهم، وجلد الطبول يهتزّ حتى يكاد ينفجر. ويتناولون سكاكينهم ويقطعون بها أذرعهم.

إنها حزينة، لنكن حزينين! إذ يجب أن نتألّم لنعجبها! وبذلك تُعاد إليكم خطاياكم. فالدم يغسل كل شيء؛ ألقوا قطراته، مثل الأزهار. إنها تطلب دم شخص آخر، دم رجل نقي!

ورفع العجوز سكينه إلى ذقنه.

صاح أنطونيوس، وقد تملّكه الهلع:

– لا تذبح الحَمَل!

وانطلق دفقٌ أحمر. فَرَشّ به الكاهن الجمهورَ كلّه؛ والجميع، -بمن فيهم أنطونيوس وهيلاريون-، مصطفّون حول الشجرة التي تحترق، يراقبون بصمت النبضات الأخيرة للضحية.

من بين الكهنة خرجت امرأة شبيهة تماماً بالصورة المسجونة في الصندوق الصغير. توقفت حين رأت شاباً يعتمر طاقية فريجية، ويرتدي بنطالاً ضيقاً، مفتوحاً هنا وهناك بمعينات منتظمة تغلقها عُقد ملوّنة. يستند بمرفقه على أغصان الشجرة، حاملاً مزماراً بيده، في وضع مغرٍ.

طوقت سيبيل خصره بذراعيها وصاحت:

- لقد اجتزتُ المناطق كلها لكي ألقاك،- وكانت المجاعة تجتاح الأرياف. لقد خدعتَني! لا يهم! فأنا أحبّك. أدفئ جسدي، ولنتّحد!

أتيس:

- الربيع لن يعود بعد الآن، أيتها الأم الأبدية! برغم حبي، ليس بوسعي أن أدخل إلى جوهرك. أريد أن أتغطى بفستان ملون كفستانك. أنا أحسد نهديك المليئين باللبن، وطول شعرك، وردفيك الواسعين اللذين تخرج منهما الكائنات. أنا لستُ أنت، أنا لست امرأة! لا، أبداً! إن فحولتي ترعبني!

وبحجر حاد جبّ أعضاءه، ثم أخذ يركض هائجاً، وهو يرفع في الهواء عضوه المقطوع.

فعل الكهنة كالإله، وفعل الجمهور كالكهنة، وتبادل الرجال والنساء ثيابهم، وتعانقوا، وابتعدت هذه الدوّامة من اللحم الدامي، بينما أصبحت الأصوات، الدائمة إلى الأبد، أكثر صراخاً وحدّة، كتلك التي نسمعها في الجنازات.

حامل كبير مشدود بالأرجوان، يحمل على قمته سريراً من الأبنوس، تحيط به مشاعل وسلال من الأسلاك الفضية، يخضرّ فيها الخس والخطمي والشمرة؛ وعلى المدرجات من الأعلى إلى الأسفل نساء جالسات، يرتدين السواد جميعاً،

وأحزمتهن مرخية، وأقدامهن حافية، وهيئاتهن كئيبة، وتحمل كل منهن بيدها باقة كبيرة من الأزهار.

على الأرض، عند أسفل المنصة صناديق من المرمر تحوي الآس يتبخر ببطء.

تُميَّزُ على السرير جثة رجل، ودم يسيل من فخذه، ويترك ذراعه متدلية، وهناك كلب يعوي وهو يلحس أصابعه. بينما صف المشاعل المتراصّة جداً يمنع من رؤية وجهه. فغزا القلقُ أنطونيوس؛ لأنه خشي أن يتعرّف إلى أحد ما.

توقف نشيج النساء، وبعد فاصل من الصمت، أنشدن جميعاً بصوت واحد:

– وسيم! وسيم! إنه وسيم! كفى نوماً، ارفع رأسك! قف! تنشّق باقاتنا! إنها من النرجس وشقائق النعمان، مقطوفة من حدائقك لكي تعجبك. انتعِش، إنك تخيفنا!

تكلّمْ! ماذا يلزمك؟ هل تريد أن تشرب الخمر؟ هل تريد أن تنام في أسرّتنا؟ وهل تريد أن تأكل قطعاً من الخبز بالعسل لها أشكال عصافير؟

- لنضغط خاصرتيه، ونقبّل صدره!

انظر! انظر! ألا تحسّ بأصابعنا المحمّلة بالخواتم التي تتحرّك على جسدك، وبشفاهنا التي تسعى إلى فمك، وشعورنا التي تكنس فخذيك؟ إن الله يصمّ أذنيك عن صلواتنا!

أطلقن صرخات، ومزّقن وجوههن بأظافرهن، ثم صمتن؛ وما يزال عواء الكلب يُسمع.

- للأسف! للأسف! دمه الأسود يسيل على لحمه الأبيض كالثلج! وهذه ركبتاه تلتقّان؛ وأضلاعه تغوص. أزهار وجهه بلّلت الغطاء الأرجواني. لقد مات! فلنبك! ولنأسَ عليه!

أتين جميعاً صفاً واحداً ليضعن بين المشاعل شعورهن الطويلة، وهن يشبهن من بعيد أفاعي سوداء أو شقراء. وينخفض الحامل ببطء حتى مستوى مغارة، وقبر مظلم ينفتح من الخلف.

عند ذلك انحنت امرأة على الجثة، فغطّاها شعرُها الذي لم تقصصه، من رأسها حتى قدميها. وسكبت كثيراً من الدموع بحيث إن ألمها يختلف بكل تأكيد عن ألم الأخريات، بل هو أكثر إنسانية، لا ينتهي.

فكر أنطونيوس بأم يسوع.

قالت:

- لقد هربتَ من الشرق؛ وكنتَ تحتضنني بذراعيك وأنا مرتعشة من الندى؛ أوه يا أيتها الشمس! يمامات تطير على لازورد معطفك، كانت قبلاتنا تُحدث نسائم تحرّك أوراق الأشجار؛ وكنتُ أستسلم لحبك، متلذّذة بمتع ضعفي.

للأسف! للأسف! لماذا ذهبتَ لتجري على الجبال؟ عند الاعتدال الخريفي جَرَحك خنزير برّي.

متَّ، وبكتك الينابيع، وانحنت لك الأشجار، ورياح الشتاء هبّت على الأشجار العارية. عيناي ستنغلقان؛ لأن الظلمات تكتنفك. الآن، أنت تسكن في الطرف الآخر من العالم، قرب منافستي الأقوى مني.

أوه يا بيرسيفون، لقد نزل عندك كلُّ شيء جميل، ولن يعود!

وبينما هي تتكلّم حملت رفيقاتها الميت ليُنزلنه إلى القبر. بقي بين أيديهن، ولكن ما هو إلا جثة من شمع.

شعر أنطونيوس بنوع من الارتياح.

غاب كل شيء؛ وظهر الكوخ والصخور والصليب من جديد.

ومع ذلك، فقد لمح على الجهة الأخرى من نهر النيل امرأة واقفة وسط الصحراء. تحتفظ بيدها بالطرف السفلي لحجاب أسود يغطي وجهها، وهي تحمل على ذراعها اليمنى طفلاً صغيراً تُرضعه. وإلى جانبها قرد كبير يقرفص على الرمال.

رفعت رأسها نحو السماء، وسُمع صوتها على الرغم من المسافة.

قالت إيزيس:

– أوه نايث! يا بداية الأشياء! آمون سيد الأبدية، وبتا يا خالق العالم، وثوث يا ذكاءه، آلهة أمانتي، يا ثلاثيات المسمّين،

باشق في السماء، وأبو الهول قرب المعابد، إيبيس واقفاً بين قرون العجول، كواكب، نجوم، شواطئ، همس الرياح، وانعكاس النور، أخبروني أين يوجد أوزيريس؟

لقد بحثتُ عنه في كل الأقنية والبحيرات، وأبعد أيضاً من مدينة بيبلوس الفينيقية. وكان أنوبيس، منتصب الأذنين يتقافز من حولي، ينبح ويدس فمه في أحراج التمرهندي، شكراً يا سينوسيفال، شكراً!

وأعطت القرد ضربتين أو ثلاثاً على رأسه بمحبة.

الإعصار الكريه ذو الشعر الأشقر قتله، وفتّته! لقد وجدنا أعضاءه كلها. ولكن ليس لدي ما يجعلني خصبة.

وأطلقت نحيباً حادّاً.

استبدّ الغضب بأنطونيوس، فرماها بالحصى وهو يشتمها:

– وقحة! اذهبي من هنا!

هيلاريون:

– احترمها! فقد كان هذا دين أجدادها، وقد حملتَ تعويذاتها في مهدك.

إيزيس:

– في الماضي، عندما كان الصيف يعود، كان الفيضان يطرد الحيوانات النجسة إلى الصحراء. وتنفتح السدود، وتتصادم القوارب، وتشرب الأرض اللاهثة النهر ثمِلةً. أيها الإله

ذو قرون الثور، كنتَ تتمدّد على صدري- وكنا نسمع خوار البقرة الأبدية!

البذار والحصاد ودرس القمح وموسم جني العنب تتعاقب بانتظام، بحسب تناوب الفصول. وفي الليالي الصاحية دائماً، تلمع نجوم كبيرة. والنهارات سابحة في بهاء لا يريم. وكنا نرى الشمس والقمر كزوجٍ ملكي في كل جهة من الأفق.

كنا نحكم نحن - الاثنين - عالماً أسمى، كنا ملكين توأمين، زوجين مثل طفولة الأبدية؛ هو يمسك صولجاناً له رأس كونكوفا، وأنا أمسك صولجاناً من أزهار اللوتس، ونحن واقفان، مضمومي الأيدي؛- وانهيارات الإمبراطورية لا تغيّر شيئاً من وقفتنا.

كانت مصر تمتد تحتنا، رائعة ورصينة، طويلة كممر معبد، مسلّات إلى اليمين، وأهرام إلى اليسار، ومتاهتها في الوسط، وفي كل مكان جادّات الوحوش، وغابات من الأعمدة، ومدقّات ثقيلة تطرق أبواباً على قممها الكرة الأرضية بين جناحين.

وحيوانات الأبراج موجودة في مراعيها، تملأ بأشكالها وألوانها كتابتها الغامضة. مقسمة إلى اثنتي عشرة منطقة، كما هي السنة مقسمة إلى اثني عشر شهراً،- كل شهر، وكل يوم له إلهه،- وهي تعيد إنتاج نظام السماء السرمدي. وحين يموت الإنسان، لا يفقد وجهه، بل يُشبع بالعطور، ويصبح غير قابل للفناء، سينام طوال ثلاثة آلاف عام في مصر الصامتة.

وتلك أكبر من الأخرى، لأنها تمتد تحت الأرض. يُنزَل إليها بأدراج تؤدي إلى غرف حيث أعيد إنتاج أفراح الطيبين، وعذابات الأشرار، كل ما يجري في العالم الثالث الخفي. يُصَفّ الأمواتُ على طول الجدران، في أكفان ملونة، ينتظرون أدوارهم؛ فالروح المعفية من الترحال، تواصل غفوتها، حتى اليقظة في الحياة الأخرى.

ومع ذلك، فقد كان أوزيريس يعود أحياناً ليراني. وقد جعلني ظلُّه أمَّ هاربوكرات.

ثم تتأمل الطفل.

إنه هو! وهاتان هما عيناه؛ وهذا شعره، مضفور كقرني كبش! سوف تكرّر أعماله. وسنزهر مثل أزهار اللوتس. أنا دائماً إيزيس العظيمة! لم ينزع عني أحدٌ حجابي، وثمرتي هي الشمس؛ شمس الربيع. غيوم تظلم وجهك! نفَس الإعصار يفترس الأهرامات. ومنذ قليل، رأيتُ أبا الهول هارباً، كان يجري كابن آوى.

أنا أبحث عن كهَنتي،- كهنتي بمعاطفهم المصنوعة من الكتّان، ومعهم هارْبات كبيرة، ويحملون زورقاً سرياً، مزيّنا بمشاجب فضية. لم يعد هناك من أعياد على البحيرات. ولا إضاءات في دلتاي! وما من أكواب لبن لفيلاي! منذ زمن طويل لم يظهر أبيس من جديد.

يا مصر! يا مصر! آلهتك العظماء الجامدون لهم أكتاف مبيضّة بزرق الطيور. والرياح التي تهبّ على الصحراء تذرو رماد أمواتك! –أنوبيس، يا حارس الظلال، لا تفارقني!

أُغمي على السينوسيفال.

هزّت طفلها وقالت:

– ولكن... ما بك؟ يداك باردتان، ورأسك مائل!

لقد مات هاربوكرات!

عند ذلك أطلقت في الهواء صرخة حادّة جداً، وجنائزية وممزِّقة، بحيث إن أنطونيوس ردّ عليها بصرخة أخرى، وهو يفتح ذراعيه ليسندها. لكنها لم تعد هنا. فخفّض وجهه، مسحوقاً بالخجل.

كل ما رآه توّاً اختلط في عقله. إنه كوعثاء السفر، وتوعّك السُّكْر. يريد أن يكره، ومع ذلك فإن شفقة غامضة حنّنت قلبه، فأخذ يبكي بغزارة.

هيلاريون:

– تُرى ماذا أحزنه؟

أجاب أنطونيوس بعد أن بحث طويلاً بداخله:

– أفكّر بكل الأرواح التي ضيّعتها هذه الآلهة!

هيلاريون:

– ألا ترى أن لديها... أحياناً.... تشابهات مع الحقيقة؟

أنطونيوس:

- إنها حيلة من الشيطان ليغوي المؤمنين بصورة أفضل. إنه يهاجم الأقوياء عن طريق الروح؛ والآخرين، عن طريق الجسد.

هيلاريون:

- ولكن اللذة في غضباتها لها حياد التوبة. وحب الجسد المسعور يسرّع في دماره،- ويطالب بضعفه امتداد المستحيل.

أنطونيوس:

- وما علاقتي أنا بهذا؟ إن قلبي يمتلئ اشمئزازاً أمام هذه الآلهة الحيوانية، المنشغلة أبداً بالقتل وسفاح القربى.

هيلاريون:

- تذكّر في الكتب المقدسة، كل الأشياء التي تثير سخطك، لأنك لا تُحسن فهمها. وكذلك هذه الآلهة، بأشكالها المجرمة، قد تحوي الحقيقة.

هناك ما يجب أن نراه! التفت!

أنطونيوس:

- لا! لا! هذا خطر!

هيلاريون:

- منذ قليل كنتَ تريد أن تعرفها. هل إيمانك يترنّح تحت أكاذيب؟ ماذا تخشى؟

تحوّلت الصخور أمام أنطونيوس إلى جبلٍ يقطعه خطٌّ من الغيوم في منتصفه، وفي الأعلى يظهر جبل آخر، ضخم، أخضر كلّه، تقطعه وديان بصورة غير متساوية، ويحمل في قمته، في غابة من أشجار الغار قصراً من البرونز، له قرميد ذهبي، مع تيجان أعمدة من العاج.

وسط صف الأعمدة، على عرش، يجلس جوبيتر ضخماً، ويحمل النصر بيد والصاعقة بالأخرى، ونسره بين ساقيه، يرفع رأسه.

بجانبه جونون، تدوّر عينيها الواسعتين، اللتين يعلوهما تاج يخرج منه بخار، وحجاب يرفرف في الريح.

وخلفهما مينرفا، واقفة على حامل، تستند إلى رمحها. وجلد غرغونة يغطي صدرها، وتنزل شملة ذات طيات منتظمة حتى أظافر أصابع قدميها. عيناها الخضراوان اللتان تلمعان تحت واقيتها، تُمعنان النظر إلى البعيد.

وإلى جانب القصر، يمتطي نبتون العجوز دلفيناً يضرب بزعانفه شيئاً لازوردياً هو إما السماء أو البحر، لأن أفق البحر يكمل الأثير الأزرق؛ فيختلط العنصران.

ومن الجهة الأخرى، يرتدي بلوتون المتوحش معطفاً بلون الليل، وهو يحمل تاجاً من الماس وصولجاناً من الأبنوس،

وسط جزيرة محاطة بدوائر الستيكس[5]:- وهذا البحر من الظل سيصب في الظلمات التي تشكّل تحت الجروف الصخرية ثقباً كبيراً أسود؛ هوّة عديمة الشكل.

ويرتدي مارس البرونز حاملاً بهيئة هائجة ترسَه وسيفه؛ وإلى الأسفل، يتأمّله هرقل مستنداً إلى دبّوسه.

أما أبولون فيقود بوجهه المشع وذراعه اليمنى الممدودة أربعة جياد بيض تعدو، وسيريس، في عربة تجرّها عجول، تتقدم نحوه وبيدها منجل. ويأتي خلفها باخوس، على عربة واطئة جداً، يقودها ببطء أوشاق، أمرد، وأغصان دوالٍ على جبينه، يمرّ حاملاً إناء يفيض منه الخمر. وإلى جانبه سيلين تترنح على حمار. وبان ذات الأذنين المدببتين تنفخ بالمزمار، والميمالونيدات يقرعون الطبول، والمينادات ينثرن الزهور، وكاهنات معبد باخوس يدوّرن رؤوسهن في الخلف، وشعورهن منثورة.

وتخرج ديانا بثوبها المشمّر من الغابة مع حورياتها.

في عمق كهف، يضرب فولكان الحديد بين الكابيرات؛ وهنا وهناك الفلوفات القديمة ترتفع حجارة خضراء، ناشرات مزهرياتهن؛ وربات الموسيقى يغنّين في الوديان.

---

[5] نهر الغي في العالم السفلي بحسب الميثولوجيا اليونانية. (م)

والساعات بأحجام متساوية يمسكن أيادي بعضهن بعضاً؛ وهرمس موضوع بشكل مائل على قوس قزح، مع صولجانه وأجنحته العقبية وقبعته.

ولكن في أعلى درج الآلهة، بين الغيوم الناعمة كريشات، والتي تنثر حلزونيته الورود وهي تدور، تنظر فينوس أناديومين إلى نفسها في مرآة، وحدقتاها تختفيان بإثارة تحت أجفانها الثقيلة.

شعرها الطويل الأشقر ينسدل على كتفها، نهداها صغيران، وخصرها نحيل، وردفاها منحنيان، وفخذاها ملتفّتان، والحفرات حول الركبتين والقدمين ناعمة. وغير بعيد عن فمها تطير فراشة. روعة جسمها تصنع حولها هالة صدفية مضيئة؛ وبقية الأولمب سابح في فجر أحمر، يرتفع رويداً رويداً نحو السماء الزرقاء.

أنطونيوس:

– آه! إن صدري يتّسع. فرحٌ لم أعهده من قبل ينزل إلى أعماق روحي! ما أجمل هذا! ما أجمل هذا!

هيلاريون:

– إنهم ينحنون من أعالي الغيوم ليقودوا السيوف؛ يُصادَفون على جوانب الطرقات، وتُمتلك في البيوت؛ وهذه الإلفة تؤلّه الحياة.

ليس لديها من هدف إلا أن تكون حرة وجميلة. الملابس الواسعة تسهّل نبل المواقف. صوت الخطيب الذي يمارسه البحر يضرب بأمواج هادرة صفوف الأعمدة الرخامية. الشاب اليافع، الممسوح بالزيت، يصارع وهو عار تماماً تحت الشمس.الفعل الأكثر دينيةً كان عرض أشكال نقية.

وهؤلاء الرجال يحترمون الزوجات، والشيوخ، والضارعين. وكان مذبح بيتي يقع خلف معبد هرقل.

كانت الضحايا تذبح مع أزهار حول الأصابع. والذكرى كانت معفاة من تفسّخ الموات. لم يبق منهم إلا بعض الرماد. وكانت الروح الممتزجة بالأثير اللامحدود قد رحلت إلى الآلهة.

وأضاف وهو يميل على أذن أنطونيوس:

– وهم ما يزالون أحياء! الإمبراطور قسطنطين يعبد أبولون. وستجد الثلاثية في أسرار ساموتراس، وعماد إيزيس، وافتداء ميثرا، وشهادة إله في أعياد باخوس. بروزيربين هي العذراء! ... وأريستي، يسوع!

ظل أنطونيوس خافض العينين، ثم كرّر فجأة رمز أورشليم؛- كما يتذكّره -، وهو يرسل مع كل جملة زفرة طويلة.

أنا أومن بإله واحد، الآب،- وبسيد واحد يسوع المسيح، الابن الأول، مولود من الله،- الذي تجسد وصار رجلاً، والذي صُلب ودُفن، والذي صعد إلى السماء، والذي سيأتي ليحاكم

الأحياء والأموات، والذي لا حدود لملكوته؛ وروح قدس واحد، وعماد واحد يمحو الذنوب، وكنيسة كاثوليكية مقدسة واحدة، وقيامة الجسد، وبالحياة الأبدية!

سرعان ما كبر الصليب، وثقب الغيوم، وعكس ظلاً في سماء الآلهة.

شحبوا جميعاً، وتحرّك الأولمب.

ورأى أنطونيوس في أسفله، أجساماً هائلة مقيدة بالسلاسل، نصف هائمة أمام كهوف، أو تحمل حجارة على أكتافها. إنهم التيتانات والعمالقة والهيكاتونشيرات والسيكلوبات.

ارتفع صوت، غير واضح، ورهيب؛ كصوت الأمواج، كصوت الغابات في العاصفة، كصوت الريح في الهاوية.

– كنا نعرف هذا نحن – الآخرين - يجب على الآلهة أن ينتهوا. أورانوس قُطع من ساتورن، وساتورن من جوبيتر. هو نفسه سيباد. كلّ بدوره؛ هذا هو القدر!

ورويداً رويداً، يغوصون في الجبل، ويختفون.

في تلك الأثناء، طار قرميد القصر الذهبي.

نزل جوبيتر عن عرشه. الرعد عند قدميه، يدخّن كجمرة على وشك الانطفاء؛- والنسر مادّاً عنقه، أخذ يلملم الريش الذي سقط.

- إذاً أنا لم أعد سيد الأشياء، طيباً جداً، كبيراً جداً، إله القبائل والشعوب اليونانية، جد الملوك جميعاً، أغاممنون السماء.

يا نسر المجد! أية نفحة من إيريب دفعتك إليّ؟ أو هل تحمل إليّ روح آخر الإمبراطورات حين طرتَ من ساحة مارس؟

أنا لا أريد روح البشر! فلتحفظهم الأرض، وليتحرّكوا على مستوى انحطاطها. إن لديهم الآن قلوب عبيد، ينسون الشتائم، والجدود واليمين، وينتصرون في كل مكان على غباء الجماهير، وعلى ضعة الفرد، وبشاعة الأعراق!

رفع تنفُّسُه أضلاعَه حتى كاد يكسرها، ولوى قبضتيه. قدمت له هيبيه كوباً وهي تبكي. فأخذه.

لا! لا! ما دام هناك، في أي مكان، رأسٌ يحوي فكراً، ويكره الفوضى، ويتصوّر القانون، فإن روح جوبيتر ستعيش!

لكن الكوب فارغ.

قرّبه ببطء من ظفر إصبعه.

لم يعد هناك من قطرة. عندما ينفد طعام الآلهة، يذهب البشر!

انزلقت من بين يديه؛ واستند إلى أحد الأعمدة، وهو يشعر بأنه يموت.

جونون:

– يجب عدم الشعور بكل هذه المشاعر من الحب! نسر وثور وطائر يمّ، ومطر ذهبي، وسحابة ولهب؛ لقد اتخذتَ الأشكال كلّها، وضيّعتَ نورك في العناصر كلّها، وفقدتَ شعرك على الأسرّة كلّها! لا عودة عن الطلاق هذه المرة، لقد انحلّ وجودُنا، وبادت سيطرتنا!

ثم ابتعدت في الهواء.

لم يعد لمينرفا رمح؛ فأخذت الغربان التي تعشّش في ثنايا الإفريز تدور من حولها، وتعض خوذتها.

– دعوني أرَ ما إذا كانت سفني التي تمخر عباب البحر اللامع قد عادت إلى مرافئي الثلاثة، ولماذا أقفرت الأرياف، وما تفعله بنات أثينا الآن.

في شهر التضحيات، أتاني شعبي بأسره، يقوده قضاتُه وكهنتُه. ثم تقدّمت صفوف العذراوات الطويلة بفساتينهن البيضاء وغلالاتهن الذهبية، يحملن كؤوساً، وسلالاً، ومظلات؛ ثم، الثلاثمائة عجل المعدّة للقرابين؛ وأتى شيوخ يهزّون أغصاناً خضراء، وجنود يتصادمون بأسلحتهم، وشبّان يغنّون أناشيد، وعازفو المزامير، وعازفو القيثارات، والشعراء الجوّالون، والراقصات؛- وأخيراً على سارية سفينة ثلاثية المجاديف تمشي على عجلات، حجابي الكبير الذي طرّزته العذراوات اللواتي

غُذّين طوال سنة بطريقة خاصة، وحين ظهر في الشوارع كلها والساحات كلها وأمام المعابد كلّها، وسط الموكب الذي ما يزال يهزج، صعد خطوةً خطوة هضبة الأكروبول، ولمس صف الأعمدة ودخل إلى البارتينون.

بيد أن اضطراباً مسّني، أنا الماهرة! كيف، كيف، ليست لديّ فكرة! ها أنا ذا أرتعش كامرأة.

لمحت خراباً خلفها، فأطلقت صرخة، وضربت جبينها، وارتمت أرضاً على ظهرها.

خلع هرقل جلد الأسد الذي يرتديه، واستند بقدميه، ونفخ ظهره، وعضّ شفتيه، وهو يبذل جهوداً فائقة لكي يسند الأولمب الذي ينهار.

– لقد قهرتُ القردة، والأمازونات والسنطورات، وقتلتُ كثيراً من الملوك. وكسرت قرن أشلويه؛ النهر العظيم. قطعتُ جبالاً، وجمعت محيطات. وخلّصتُ بلدان العبيد؛ وملأتُ البلدان الفارغة بالسكان، وعبرت بلاد الغال، واجتزت الصحراء التي يعشّش فيها العطش. ودافعت عن الآلهة، وتخلّصتُ من أومفال. ولكن الأولمب ثقيل جداً. ذراعاي تضعفان. أنا أموت.

وانسحق تحت الأنقاض.

بلوتون:

– الخطأ خطؤك يا أمفيتريوناد! لماذا نزلت إلى إمبراطوريتي؟

رفع الصقرُ الذي أكل أمعاء تيتيوس رأسه؛ وابتلّت شفةُ تانتال. وتوقّفت عجلة إيكسيون.

في تلك الأثناء، مدّ الكيريس أظافرهم ليُبقوا الأرواح، ولوت الفوريات أفاعي شعورهن يأساً؛ والسيربير المربوط بك بسلسلة، يحشرج وهو يطلق اللعاب من وجوهه الثلاثة.

لقد أبقيت الباب مواربا. أتى آخرون. يوم البشر دخل التتري، وغاص في الظلمات.

نبتون:

– لم تعد شوكتي الثلاثية تثير العاصفة. والوحوش التي كانت تخيف، تفسّخت في عمق المياه.

أمفيتريت التي تجري أقدامها البيضاء على الزبد، والنيرايدات التي تُميَّز في الأفق، والحوريات ذوات الحراشف التي توقف السفن لتروي لها قصصاً، والتريتونات العجائز اللواتي ينفخن في القواقع، كل شيء مات! وفرح البحر اختفى.

لن أبقى على قيد الحياة. فليغمرني المحيط الواسع.

واختفى في اللازورد.

ديانا التي ترتدي السواد، وسط كلابها التي أصبحت ذئاباً:

– استقلال الغابات الكبرى دوّخني، مع رائحة الحيوانات الضارية والروائح المنبعثة من المستنقعات. والنساء اللواتي كنتُ أحمي حملهن، ولَدن أطفالاً ميتين. والقمر يرتعش تحت

تجسّد السحَرة. لدي رغبات بالعنف والاتساع. أريد أن أشرب سموماً وأن أشنق نفسي في الأبخرة، في الأحلام!...

وحملتها غيمة عابرة.

مارس:

- في البداية قاتلتُ بمفردي، مثيراً بشتائمي جيشاً بأكمله، غير عابئ بالأوطان، ومن أجل متعة القتل.

ثم، صار لدي رفاق. كانوا يمشون على أصوات المزامير، بنظام جيد، بخطوة موزونة، يتنفسون من فوق تروسهم، وعُفراتهم عالية، ورماحهم مائلة. كنا ننغمس في المعركة بصرخات هائلة كصرخات النسر. وكانت الحرب مفرحة كوليمة. ثلاثة آلاف رجل قاوموا آسيا كلّها.

ولكن البرابرة عادوا! بعشرات الألوف، بالملايين! لأن العدد والآلات والحيلة أقوى، فمن الأفضل أن أنتهي كشجاع.

وقتل نفسه.

مسح فولكان بإسفنجة أعضاءه المتصبّبة عرقاً، ثم قال:

- العالم يبرد. يجب تسخين الينابيع، والبراكين والأنهار التي تجري معادن تحت الأرض !- اضربوا ضرباً أقوى! بملء أذرعكم! بكل قواكم!

الكابيرات جرحت نفسها بالمطارق، وعميت من الشرر، ومشت على أعقابها، وتاهت في الظل.

قالت سيريس الواقفة على عربتها المحمولة بعجلات لديها أجنحة في خدمتها:

- قف! قف!

كنا على حق تماماً بإبعاد الأجانب، والملحدين، والأبيقوريين، والمسيحيين! سر السلّة انكشف، الحرم المدنّس، كل شيء ضاع!

ونزلت في منحدر سريع؛ يائسة، تصرخ، وتنتزع شعرها.

آه! يا للكذبة! ديرا لم يُعد إليّ! البرونز يدعوني نحو الأموات. إنها بلاد تتار أخرى! لا يعود أحد منها! يا للرعب!

وتبتلعها الهاوية.

قال باخوس وهو يضحك بجنون:

- ما همّني! امرأة الأركونت هي زوجتي! القانون نفسه سقط في السُّكر. لي الأهمية الجديدة والأشكال المتعدّدة!

النار التي افترست أمي، تسري في عروقي. فلتحرق بقوة أكبر، يجب أن أفنى!

ذكر وأنثى، صالح للجميع، أسلم نفسي لكنّ يا كاهنات المعبد! أسلّم نفسي لكنّ يا كاهنات المعبد! والكرمة ستلتف على جذوع الأشجار! اصرخن، ارقصن، تلوّين! أفلِتن النمر والعبد! اعضضن اللحم بأسنان شرسة!

وبان وسيلين والساتيرات وكاهنات المعبد، والميمالونايدات والمينادات، بأفاعيهن، ومشاعلهن، وأقنعتهن السوداء، يترامين

بالأزهار، يكتشفن قضيباً، يقبّلنه،- ويهززن سناطيرهن، ويتضاربن بالقواقع، ويقضمن العنب، ويخنقن كبشاً، ويمزقن باخوس.

قال أبولون وهو يجلد خيوله، وشعره الأبيض يطير:

- تركتُ خلفي ديلوس المحجّرة، نقية بحيث إن كل شيء فيها يبدو الآن ميتاً؛ أسعى إلى الاتقاء بدلف قبل أن يضيع البخار الموحي كلياً. البغال تأكل شجرة الغار. وبيثي التائهة لا توجد.

بتركيز أقوى، سأؤلف قصائد سامية، ومعالم خالدة، والمادة كلّها ستدخل إليها اهتزازات قيثارتي.

ضرب على أوتارها، فانفجرت وصفعت وجهه. رماها، وضرب صندوقها بغضب.

- لا! كفى أشكالاً! وأبعد من هذا أيضاً، على القمة تماماً، في الفكرة النقية!

ولكن الخيول تراجعت، واشرأبّت، وكسرت العربة، فصفعته ألواحُها، وتناثرت أجزاؤها، فسقط في الهاوية، ورأسه إلى الأسفل.

ادلهمّت السماء.

زرّق البردُ فينوس، فراحت ترتعش، وقالت:

- كنتُ أصنع من حزامي أفق اليونان كلّها.

وكانت حقولها تلمع بورود وجنتيّ، وكانت شواطئها مقسّمة بحسب شكل شفتيّ؛ وجبالها، أكثر بياضاً من يماماتي، تنبض تحت أيدي صانعي التماثيل. كان يُعثر على روحي في ترتيب الأعياد، وتصفيف الشعر، وفي حوار الفلاسفة، وبناء الجمهورية. ولكني أفرطتُ في إعزاز الرجال! إن الحب هو الذي جلّلني بالعار.

انقلبت وهي تبكي، ثم أضافت:

– العالم بشع، والهواء قليل في صدري!

آه! احملني يا هرمس، يا مخترع القيثارة، وقائد الأرواح!

وضعت إصبعها على فمها، وهوت في الهاوية وهي ترسم منحنى.

لم يعد أحد يرى شيئاً. فقد عمّت الظلمات الكون.

ومع ذلك فقد انطلق من عيني هيلاريون ما يشبه السهمين الأحمرين.

أخيراً لاحظ أنطونيوس قامته السامقة، فقال له:

– وأنت تتكلّم بدوتَ لي مراراً وأنت تكبر؛- ولم يكن ذلك وهماً. كيف؟ فسّر لي... شخصك يرعبني!

وقع خطوات تقترب.

– ما هذا؟

مدّ هيلاريون ذراعيه، وقال:

- انظر!

عند ذلك، تحت شعاع قمر شاحب، ميّز أنطونيوس قافلة لا تنتهي تسير على حرف الصخور،- وكل مسافر، الواحد تلو الآخر، يسقط من أعلى الجرف الصخري في الهاوية.

كان في البداية الآلهة الكبار: ساموتراس، وأكسيوكيروس، وأكسيوكيرسا، مجتمعين في حزمة واحدة، ويضعون قناعا أرجوانياً ويرفعون أذرعهم.

إسكالوب يتقدم بهيئة كئيبة، حتى دون أن يرى ساموس وتيليسفور اللذين يسألانه بقلق. سسيبوليس إيلين، على شكل أصَلة تدوّر حلقاتها نحو الهاوية. أصيبت دويسبوني بالدّوار فرمت بنفسها فيها. وبريتومارتيس صاح من الرعب وتشبّث بعقد شبكة صيده. وصل السنطورات مسرعين، وهووا كيفما اتفق في الثقب الأسود.

وخلفهم تمشي فرقة الحوريات المحزنة وهي تعرج. حوريات المروج يغطّيهن الغبار، وحوريات الغابات يغطّينّ أنينُهن وتضرّجهن دماؤهن، فقد جرحتهن فؤوس الحطّابين.

والجلوديات، والستريجات، والأمبوزات، وإلاهات الجحيم جميعاً، خلطن كلّاباتهن ومشاعلهن وأفاعيهن، وشكّلن هرماً:- وفي القمة، على جلد صقر، تقف أورينوم، مزرقّة كذباب اللحم، تفترس ذراعيها.

ثم اختفت في إعصار: أورثيا الدموية، وهيمني أوركومين، ولافريا باترين، وآفيا إيجين، وبنديس تراس، وستيمفاليا ذات فخذي الطير، وتريوباس، التي بدلاً من أنه كان لديها ثلاثة حدقات، لم يعد لديها إلا ثلاث محاجر، وإيريكتونيوس، خائرة الساقين، تزحف على معصميها كمبتوري الساقين.

هيلاريون:

– يا لسعادتنا، أليس كذلك، ونحن نراهم جميعاً يرتعون في الانحطاط والاحتضار! اصعد معي على هذا الحجر، وستكون مثل كزيريكس وهو يستعرض جيشه.

هناك، في البعيد جداً، وسط الضباب، هل تلمح ذلك العملاق ذا اللحية الشقراء الذي يلقي سيفه المحمرّ من الدماء؟ إنه سيت زالموكسيس، بين كوكبي ارتيمبازا –الزهرة وأورسيلوش-القمر.

وأبعد منه، وهو يظهر من الغيوم الشاحبة، هناك الآلهة التي يعبدها السيمريون، بعد تول!

كانت قاعاتهم الكبيرة دافئة؛ وعلى ضوء سيوفهم العارية التي تملأ القبة يشربون العسل المحلول بالماء في قرون من العاج، ويأكلون أكباد الحيتان في أطباق من النحاس صنعتها الشياطين؛ أو يستمعون إلى السحَرة الأسرى الذي يمرّرون أيديهم على هارْبات من الحجر.

لقد تعبوا! وبردوا! أثقل الثلج جلود الدببة التي يرتدونها، وأقدامهم تظهر عبر صنادلهم المتشقّقة.

يبكون المروج، وعلى مساكب العشب كانوا يستردّون أنفاسهم في المعركة، والسفن الطويلة التي تقطع مقدّماتها جبال الجليد، والزلاجات التي يستخدمونها لاتّباع منحنى القطبين، وهم يحملون على أذرعهم القبة السماوية كلها التي كانت تدور معهم.

غطّتهما دفقة من الثلج.

خفض أنطونيوس بصره إلى الجانب الآخر. فرأى شخصيات غريبة، تظهر سوداء على خلفية حمراء، وهي تضع واقيات ذقون ويدين، وتتبادل الكرات، بعضها فوق بعض. وتصدر تكشيرات، وترقص بسُعار.

هيلاريون:

– إنها آلهة إيتروري، الآيسارات التي لا تُعد ولا تُحصى.

هذا تاجس، مخترع التكهّنات. يحاول بيدٍ أن يزيد من أبعاد السماء، وبالأخرى يستند إلى الأرض. فليعد إليها!

نورتيا تتأمل السور الذي تحاول أن تُدخل فيه مسماراً لتحدّد عدد السنوات. ووجهه مغطى بها، والفترة الأخيرة اكتملت.

وكمسافرين ضربتهما العاصفة، يلتجئ كاستور وبولتوك مرتعشين تحت معطف واحد.

أغمض أنطونيوس عينيه وقال:

- كفى! كفى!

ولكن مر في السماء مع خفق أجنحة قوي كل انتصارات الكابيتول،- وهم يغطون عيونهم بأيديهم، وفاقدين الجوائز المعلقة بأذرعهم.

يانوس،- سيد الغسق، يهرب على كبش أسود؛ ووجهاه، الأول تحلّل، والثاني ينام من التعب.

سومانوس،- إله السماء الداكنة الذي لم يعد له رأس، يضغط على قلبه قطعة حلوى قديمة على شكل عجَلة.

فستا، - تحت قبة مهدمة، يحاول أن يشعل من جديد مصباحه المنطفئ.

بيلون،- يقطّع خدّيه، دون أن يسيل الدم الذي كان يطهر به المخلصين له.

أنطونيوس:

- الرحمة! إنهم يتعبونني!

هيلاريون:

- في الماضي، كانوا يسلّونك!

وأراه في غيضة من أشجار الغُبيراء امرأة عارية تماماً، تسير على أربع قوائم كحيوان، وقد ضاجعها رجل أسود يحمل مشعلاً في كل يد.

- إنها إلهة أريسيا مع الشيطان فيربيوس. وكاهنها، ملك الغابات، لا بد أنه قاتل؛- والعبيد هربوا، سارقو الجثث، وقطّاع طريق سالاريا، وجرحى جسر سوبليسيوس، وكل سكان أكواخ سوبور ليس لديه إخلاص أعز.

سيدات عصر ماركوس-أنطونيوس كن يفضّلن ليبيتينا.

وأراه تحت أشجار الصنوبر والورد امرأة أخرى- ترتدي فستاناً شفّافاً. تبتسم، حولها معاول، ونقّالات، وأغطية سوداء، وأدوات الجنازة كلّها. ماساتها تلمع من بعيد تحت شبكة عنكبوت. واليرقات، كالهياكل العظمية تُبدي عظامها بين الأغصان، والليمورات التي هي أشباح، تبسط أجنحتها كأجنحة الخفافيش.

وعلى حدود حقلٍ، هناك الإله تيرم، مجتثّاً، محنياً، مغطّى القمامة.

ووسط أخدود، الجثة الكبرى لفرتومن وقد نهشتها كلاب حمراء.

ابتعد الآلهة الريفيون وهم يبكون، سارتور وساراتور وفرفاكتور وكولينا وفالونا وهوستيلينوس،- كلّهم مغطّون بمعاطف صغيرة لها قبعة، وكل منهم يحمل معولاً صغيرة أو شوكة أو حصيرة أو حربة صيد.

هيلاريون:

– كانت روحهم التي كانت تجعل الفيلا تزدهر بأبراج الحمام، وحدائقها المليئة بالقرقدن والحلزون، وحظائرها المسيَّجة بشباك، وإسطبلاتها المدفّأة والمفروشة بالرماد.

كانوا يحمون الشعب البائس كلّه وهو يجر قطع حديد سيقانه على حصى سابين، وهم الذين كانوا ينادون الخنازير بالأبواق، وهم الذين كان يقطفون العنب من العرائش العالية، وهم الذين كانوا يدفعون على الدروب الضيقة الحمير المحمّلة بالسماد. وكان الفلاح الذي يلهث على مقبض محراثه يرجوهم أن يقوّوا ذراعيه؛ والبقّارون في ظل أشجار الزيزفون، وقرب أواني اللبن، يناوبون مدائحهم لهم على أصوات مزامير القصب.

تنهّد أنطونيوس.

– ووسط غرفة على مرتفع، ينكشف سرير عاجي، يحيط به أناس يحملون مشاعل من السرو.

إنهم آلهة الزواج، ينتظرون العروس!

يجب أن تُحضرها دوميدوكا. ويحلّ فيرغو حزامها، ويمدّدها سوبيغو على السرير،- وتباعد برايما بين ذراعيها، وهي توشوشها كلاماً عذباً.

ولكنها لم تأتِ! صرفوا الآخرين: نونا وديسيما، حارستان مريضتان-، والنيكسيون الثلاثة مولّدون، والمرضعتان إيدوكا

وبوتينا،- وكارنا المهدهِدة، التي تبعد باقة زعرورها الأحلام السيئة عن الطفل.

فيما بعد، سيكون أوسيباغو قد صلّب ركبتيه، وباراباتوس سيمنحه اللحية، وستيمولا، الرغبات الأولى، وفولوبيا، المتع الأولى، وفابولينوس تعلمه الكلام، وكاموينا الغناء، وكونسوس التفكير.

الغرفة فارغة؛ ولم يبق قرب السرير إلا ناينيا - تبلغ من العمر المائة سنة،- وهي تهمس لنفسها العويل الذي تقوله عند وفاة العجائز.

ولكن سرعان ما طغت على صوتها صرخات حادة، إنهم:

اللارات البيتية؛ مقرفصون في صدر الفناء الداخلي، يرتدون جلود كلاب، ومعهم أزهار حول أجسامهم، يبقون أيديهم مغلقة على خدودهم، وهم يبكون قدر استطاعتهم.

أين حصة الغذاء التي تُعطى لنا في كل وجبة، والعنايات الجيدة من الخادمة، وابتسامة المرضعة، وفرح الأطفال الصغار وهم يلعبون بالعظيمات على فسيفساء الباحة؟ ثم بعد أن يكبروا، يعلقون على صدورنا كراتهم الذهبية أو الجلدية.

أية سعادة، حين يعود السيد مساء النصر، وينظر إلينا بعينين مخضلّتين! يروي لنا قصص معاركه، ويصبح البيت الضيق أعز من قصر، وأقدس من معبد.

كم كانت لذيذة وجبات العائلة، ولاسيما في اليوم التالي من الفيراليا! في الحنين إلى الأموات، كل الخلافات تسوّى، ويتعانقون، ويشربون نخب أمجاد الماضي وآمال المستقبل.

لكن الجدود المصنوعين من الشمع الملوّن، المسجونين خلفنا، يتغطّون ببطء بالعفن. والأعراق الجديد كسرت فكوكنا لكي تعاقبنا على خيبات آمالها؛ إن أجسادنا تتفتّت بأسنان الجرذان.

والآلهة الذين لا يُعدّون ولا يُحصون، إذ يحرسون الأبواب، في المطبخ، في القبو، وفي الأتونات، يختفون من كل الجهات،- على شكل نملات ضخمة تعدو، أو فراشات كبيرة تطير.

سُمع صوت كريبيتوس:

– أنا أيضاً، مجَّدوني فيما مضى. وقُدمت لي كؤوس الشراب. كنتُ إلهاً.

– كان الأثيني يحيّيني كفأل ثروة، في حين أن الروماني المؤمن كان يلعنني وقبضته مرتفعة، وكهنة مصر، الممتنعون عن الفول، كانوا يرتجفون لدى سماع صوتي، ويشحبون من رائحتي.

حين كان الخل العسكري يسيل على اللحى غير المحلوقة، وكان يُتلذَّذ بثمرات السنديان، والبازلاء والبصل الأخضر، وكان الكبش المقطّع يُنضج في زبدة الرعاة الزنخة، دون اهتمام بالجار، لم يكن أحد ينزعج آنذاك. الأطعمة الصلبة كانت

تصنع الهضم المدوّي. وتحت شمس الريف، كان الرجال يرتاحون بهدوء.

هكذا كنتُ أمر بلا فضيحة، كحاجات الحياة الأخرى، مثل مينا التي تعذّب العذراوات، ورومينا العذبة تحمي ثدي المرضعة، المنتفخ بعروق زرقاء. كنتُ فرِحاً، أُضحك! وحين كانوا يتمدّدون ارتياحاً بسببي، كان الضيف يُخرج حبوره كله من فتحات جسمه.

كان لي أيام كبرياء. كان أريستوفانيس الطيّب ينزّهني على المسرح، والإمبراطور كلاوديوس دروسوس يجلسني إلى مائدته. وفي أثواب أبناء الطبقة الراقية تجوّلتُ بأبّهة! المزهريات الذهبية، كالسناطير، كانت ترن تحتي؛- وعندما تمتلئ معدة السيد بالسمك والكمأة والمعجنات، يتخلّص منها بفرقعة، يعلم الكون المتنبّه أن قيصر قد تعشّى.

أما الآن، فأنا محاط بالدهماء،- وهم يصرخون منددّين باسمي!

ابتعد كريبيتوس وهو يطلق أنيناً.

ثم سُمع هدير رعد.

وقال صوت:

– كنتُ إله الجيش، السيد، السيد الإله!

فتحتُ على الهضاب خيامَ يعقوب، وأطعمتُ في الرمال شعبي الذي كان هارباً.

أنا الذي أحرقت سدوم! وأنا الذي غمرتُ الأرض بمياه الطوفان! أنا الذي أغرقت فرعون مع الأمراء أبناء الملوك، والعربات الحربية والحوذيين.

كنتُ إلهاً غيوراً، أكره الآلهة الآخرين. سحقت النجسين، وأسقطتُ الرائعين؛- كان أسفي يجري من اليمين إلى اليسار، كجَمل جبان في حقل من الذرة.

ولكي أخلّص إسرائيل كنتُ أختار البسطاء. وكانت تكلّمهم في الغابات ملائكة أجنحتها من نار. وكانت نساء جريئات القلوب، معطرات بالناردين والكافور والرياحين، يرتدين فساتين شفافة، وأحذية عالية الكعوب، يذبحن القباطنة. والرياح التي مرّت كانت تحمل الأنبياء.

نفشتُ قانوني على ألواح حجرية، وكان يسجن شعبي كما لو أنه في قلعة. كان شعبي. كنتُ إلهه! وكانت الأرض لي، والبشر لي، مع أفكارهم، وأعمالهم وأدوات حراثتهم وذريتهم.

وكانت سفينتي ترتاح في قدس مثلث، خلف أستار من الأرجوان وشمعدانات مُشتعلة، وكان لدي قبيلة كاملة لخدمتي، تؤرجح المجامر، والكاهن الأكبر بثوبه الأكهب، يضع على صدره أحجاراً كريمة، منتظمة بشكل متناظر.

مصيبة! مصيبة! قدس الأقداس فُتح، ومزّقت ستارته، وعطور المحرقة ضاعت في كل اتجاه. ابن آوى يعوي في القبور، هُدم معبدي، وتشتّت شعبي.

خُنق الكهنة بحبال ثيابهم، وسُبيت النساء، وأذيبت المزهريات كلّها.

وأضاف الصوت مبتعداً:

- كنتُ إله الجيوش، السيد، السيد الإله.

عند ذلك ران صمت عظيم، ليل عميق.

قال أنطونيوس:

- لقد مضوا جميعاً.

لكنّ أحداً قال:

- وبقيت أنا!

كان هيلاريون أمامه،- ولكنه متغيّر الهيئة، وسيم كملاك، ومضيء كالشمس، وطويل جداً.

قلب أنطونيوس رأسه وقال:

- ومن أنت يا ترى؟

هيلاريون:

- ملكوتي باتساع الكون؛ وليس لرغبتي حدود؛ أمضي دائماً محرّراً الروح ووازناً العوالم، بلا كراهية، وبلا خوف، وبلا شفقة، وبلا حب، وبلا الله. يسمّونني العلم.

ارتدّ أنطونيوس إلى الخلف، ثم قال:

- لا بدّ أنك بالأحرى.... الشيطان!

قال هيلاريون مثبّتاً عليه حدقتيه:

- هل تريد أن تراه؟

لم يحوّل أنطونيوس نظره، مأخوذاً بفضول الشيطان. ازداد رعبه، وأصبحت رغبته تفوق الحدود.

– ومع ذلك، ليتي أراه.... ليتني أراه!

ثم أضاف في نوبة غضب:

– الكراهية التي أكنّها له ستخلّصني منه إلى الأبد.- نعم!

وظهرت قدم متشعّبة.

أسف أنطونيوس.

ولكن الشيطان رماه على قرنيه، ورفعه.

6

إنه يطير تحته، كسبّاح، وجناحاه المفتوحان على اتساعهما، يغطّيانه كلّياً، فيبدوان كغيمة.

أنطونيوس:

- أين أنا؟

منذ قليل، لمحتُ شكل اللعين. لا!، إن غيمة تحملني. ربما أكون قد متُّ، وها أنا أرتفع نحو الله!...

آه! كم أتنفّس بشكل جيد! الهواء النقي ينفخ روحي. لم يعد لدي وزن، ولا معاناة.

في الأسفل، تحتي، تنفجر الصاعقة، ويتسع الأفق، والأنهار تتقاطع، هذه البقعة الشقراء، هي الصحراء، وهذه البركة من الماء هي المحيط.

تظهر محيطات أخرى، ومناطق شاسعة لم أكن أعرفها. هذه هي البلدان السوداء التي تدخّن كمناقل جمر. ومنطقة الثلوج مظلمة دائماً بسبب الضباب. سأعمل على اكتشاف الجبال حيث ستغيب الشمس كل مساء.

- الشمس لا تغيب أبداً!

لم يُفاجأ أنطونيوس بهذا الصوت. فقد بدا له صدى لفكره، ورداً لذاكرته.

ومع ذلك فإن الأرض تتخذ شكل كرة؛ ولمحها وسط اللازورد الذي يدور على قطبيها، وهي تدور حول الشمس.

الشيطان:

– إذاً أليست هي مركز العالم؟ يا كبرياء العالم، تذللي!

أنطونيوس:

– بصعوبة أراها الآن. إنها تختلط مع النيران الأخرى.

السماء ليست إلا نسيجاً من النجوم.

ما يزالان يصعدان.

– ما من نأمة! ولا حتى زعيق النسور! لا شيء! ... وأنحني لأصغي إلى انسجام أصوات الكواكب.

الشيطان:

– لن تسمعه! ولن ترى، أيضاً، تناقض أفلاطون، ولا موقد فيلولاوس، ولا كرات أرسطو، ولا السموات السبع عند اليهود مع المياه الكبرى فوق القبة الكريستالية!

أنطونيوس:

– من الأسفل، تبدو لي صلبة كجدار. أدخلها، بالعكس، أغوص فيها.

ووصل إلى أمام القمر، الذي يشبه قطعة جليد مستديرة تماماً، مليئة بنور جامد.

الشيطان:

- كان هنا في الماضي مسكن الأرواح. وقد زيّنه فيثاغورث الطيب، حتى بالعصافير، وبأزهار رائعة.

أنطونيوس:

- أنا لا أرى عليه إلا سهولاً عارية، مع فوّهات مطفأة، تحت سماء سوداء تماماً.

- لنمضِ نحو هذه النجوم التي لها إشعاع أهدأ، لكي نتأمّل الملائكة الذين يمسكون بها أطراف أذرعهم، مثل المشاعل.

حمله الشيطان إلى وسط النجوم، ثم قال:

- إنها تتجاذب وفي الوقت نفسه تتدافع. فحركة كل منها تنتج عن الآخر، وتسهم فيها، دون مساعدة وسيط، بل بقوة قانون، وفضيلة نظام وحدها.

أنطونيوس:

- نعم، نعم،... ذكائي يعانقها. إنه فرح أعلى من متع الحنان! أنا ألهث مندهشاً بعظمة الله.

الشيطان:

- مثل السماء التي ترتفع كلما صعدتَ، وستتسع مع ارتفاع فكرك؛ وستشعر بأن فرحك سيزداد، بحسب هذا الاكتشاف للعالم، وفي هذا التوسيع للّانهاية.

أنطونيوس:

- آه! إلى الأعلى، إلى الأعلى دائماً!

النجوم تتضاعف، تلمع. الطريق اللبني في الذروة يتطور كحزام واسع، لديه ثقوب على فواصل، في شقوق ضيائه، تتمدّد فراغات من الظلمات. توجد أمطار نجوم، وموجات غبار ذهبية، وأبخرة مضيئة ترفرف وتنحلّ.

وأحياناً يمر نيزك فجأة؛ ثم تعود سكينة الأنوار التي لا تُعَد ولا تُحصى.

فتح أنطونيوس ذراعيه واتّكأ على قرني الشيطان، قاطعاً بذلك كل الاتساع.

تذكرَ بكراهيةٍ جهلَ الأيام القديمة، وتواضُعَ أحلامه. ها هي إذاً بجانبه، هذه الكرات المضيئة التي يتأمّلها من الأسفل! ويميّز تقاطع خطوطها، وتعقيد اتجاهاتها. إنه يراها آتية من بعيد، ومعلقة كحجارة بمقلاع، لترسم مدارها، وتدفع قطوعها.

لمح بنظرة واحدة صليب الجنوب والدب الأكبر، والوشق والسنطور، وسديم الدوراد، والشموس الست في مجموعة نجوم أوريون، المشتري مع أقماره التابعة، والخاتم الثلاثي لزحل المتوحش! هذه الكواكب كلها، وهذه النجوم كلها التي سيكتشفها البشر فيما بعد! ملأ عينيه بأنوارها، وأثقل فكره بحساب مسافاتها؛- ثم سقط رأسه من جديد.

- ما الهدف من هذا كلّه؟

الشيطان:

- لا يوجد هدف!

كيف من الممكن أن يكون هناك هدف لله؟ وأية خبرة تمكنت من تثقيفه، وأي تفكير يحدّده؟

قبل البداية ما كان ليتصرف، والآن سيكون ذلك بلا فائدة.

أنطونيوس:

- ومع ذلك فقد خلق العالم دفعة واحدة، بكلمته!

الشيطان:

- ولكن الكائنات التي تسكن العالم أتت إليه بالتسلسل. وكذلك، في السماء، تظهر نجوم جديدة، تأثيرات مختلفة لأسباب متنوّعة.

أنطونيوس:

- تنوع الأسباب هو إرادة الله!

الشيطان:

- ولكن قبول عدة أفعال إرادية في الله، يعني قبول عدة أسباب وهدم وحدته!

إرادته ليست منفصلة عن ماهيته؛ وبما أنه موجود إلى الأبد، فإنه يفعل إلى الأبد.

تأمّل الشمس! من جهاتنا تنطلق ألسنة لهب عالية مُرسِلة شرراً، ينتظم ليصبح عوالمَ؛ وأبعد من الأخير، وأبعد من

أعماقه حيث أنت لا ترى إلا الليل، تدور شموس أخرى، وخلف هذه شموس أخرى، وأخرى أيضاً، إلا ما لانهاية....

أنطونيوس:

- كفى! كفى! أنا خائف! سأسقط في الهاوية.

توقف الشيطان وهو يؤرجحه برخاوة، ثم قال:

- العدم غير موجود! والفراغ غير موجود! في كل مكان هناك أجسام تتحرك على الأساس الثابت للامتداد؛ وكما لو أنه كان محدوداً بشيء ما، لن يكون الامتداد بعد الآن، بل سيكون جسماً، ليس له حدود.

أنطونيوس فاتحاً فمه:

- ليس له حدود!

الشيطان:

- اصعد في السماء، دائماً، ودائماً، لن تبلغ الذروة أبداً! انزل إلى تحت الأرض، طوال مليارات مليارات القرون، فلن تصل إلى قاعها؛ لأنه لا يوجد قاع، ولا قمة، لا في الأعلى ولا في الأسفل، لا توجد نهاية؛ الامتداد محتوى في الله الذي ليس جزءاً من الفضاء، هذا الكبر أو ذاك، بل الشساعة!

قال أنطونيوس بهدوء:

- إذاً، ... هل تشكل المادة جزءاً من الله؟

الشيطان:

- ولم لا؟ هل يمكنك أن تعرف أين ينتهي؟

أنطونيوس:

- بالعكس، أنا أسجد، وأنسحق أمام قدرته.

الشيطان:

- وتعمل على إمالته! تُكلّمه، بل وتزيّنه بالفضيلة والطيبة والعدل والرحمة، بدلاً من أن تعترف بأنه يمتلك الكمالات كلّها!

إن تصوّر شيء ما في الماوراء، يعني تصور الله ما وراء الله، الكينونة فوق الكينونة. إذاً هو الكينونة وحدها والماهية وحدها.

إذا كان للماهية أن تتجزّأ، فإنها تفقد طبيعتها، ولن تكون هي، والله لا يعود موجوداً. إذاً هو غير قابل للتقسيم، مثل اللانهاية؛ - فإذا كان له جسم، سيكون مكوناً من أجزاء، ولن يكون واحداً، ولن يكون لانهائياً. إذاً هو ليس شخصاً.

أنطونيوس:

- كيف؟ صلواتي وشهقاتي، وعذابات جسدي، وفورات غضبي، هذا كله سيذهب إلى الكذب؟ ... في الفضاء... بلا جدوى،- كصرخة طائر، كزوبعة ورق يابس!

بكى.

- لا، يوجد فوق كل شيء أحدٌ، روح عظيمة، رب، أب، يعبده قلبي، ولا بدّ أن يحبّني!

الشيطان:

– أنت ترغب في ألّا يكون الله هو الله؛- فإذا كان يشعر بالحب أو بالغضب أو بالشفقة، فإنه سينتقل من كماله إلى كمال أكبر، أو أصغر. هو لا يستطيع أن ينزل إلى شعور، ولا أن يُحتوى في شكل.

أنطونيوس:

– ومع ذلك، فإني سأراه ذات يوم.

الشيطان:

– مع السعداء الطيبين، أليس كذلك؟- عندما يستمتع المنتهي باللانهائي في مكان محدود، فإنه يحوي المطلق!

أنطونيوس:

– لا يهمني! لا بد أن هناك جنة من أجل الخير، وجحيماً من أجل الشر!

الشيطان:

– هل تَطلُّب عقلك يشكّل قانون الأشياء؟ لا ريب في أن الشر غير مبال بالله لأن الأرض مليئة به!

فهل هو يتحمّله من قبيل العجز، أم يبقيه من قبيل القسوة؟

هل تعتقد أنه يقوم دائماً بضبط العالم، بوصفه عملاً غير كامل، وأنه يراقب الحركات كلّها للكائنات كلّها بدءاً من طيران فراشة حتى تفكير الإنسان؟

إذا كان قد خلق العالم، فإن عناياته زائدة. وإذا كانت عنايته موجودة، فإن الخلق مصاب بالعيوب.

لكن الخير والشر لا يعنيان إلا أنت، مثل النهار والليل، والمتعة والعذاب، والموت والولادة، والتي هي نسبية، في زاوية من الامتداد، في وسط خاص، وفي مصلحة خاصة. لأن اللانهائي وحده هو الدائم، هناك اللانهائي،- وهذا كل شيء.

مدّ الشيطان جناحيه الطويلين تدريجياً؛ وهما الآن يغطيان الفضاء.

لم يعد أنطونيوس يرى شيئاً. إنه يضعف.

- البرد الرهيب يجمّدني حتى أعماق روحي. هذا يتجاوز مدى الألم! هذا يشبه موتاً أعمق من الموت. أنا أسير في شساعة الظلمات. بل هي تدخل إلى داخلي. وعيي يتفجر تحت هذا التوسّع في العدم.

الشيطان:

- ولكن الأمور لا تحصل لك إلا بوساطة عقلك. كمرآة مقعّرة، تشوّه الأشياء؛ وكل وسيلة تنقص لكي تتحقّق من دقتها.

لن تعرف الكون أبداً في تمام امتداده؛ وبالتالي، لن تتمكّن من تكوين فكرة عن سببه، وامتلاك مفهوم صحيح عن الله، ولا حتى أن تقول ما إذا كان الكون لانهائياً؛ لأن عليك أن تعرف اللانهاية أولاً.

قد يكون الشكلُ خطأً في حواسّك، والماهية خيالاً من تفكيرك.

إلا إذا كان العالم مدّاً أبدياً من الأشياء، بالعكس، فإن المظهر يكون كل ما هو أكثر حقيقة، الوهم هو الواقع الوحيد.

ولكن، هل أنت واثق من أنك ترى؟ وهل أنت واثق من أنك تعيش؟ قد لا يكون هناك شيء!

أخذ الشيطان أنطونيوس؛ وإذ حمله على طرفي ذراعيه، نظر إليه مفتوح الشدقين، مستعداً لافتراسه.

– اعبدني إذاً، والعن الشبح الذي تسميه الله!

رفع أنطونيوس عينيه، بحركة رجاء أخيرة.

الشيطان فارقه.

***

وجد أنطونيوس نفسه ملقى على ظهره على حافة الجرف الصخري.

بدأت السماء تبيضّ.

– هل هذا ضياء الفجر أم انعكاس القمر؟

حاول أن ينهض، فسقط من جديد، وقال وهو يصرّف بأسنانه:

– أحسّ بتعب... وكأن عظامي كلّها مكسّرة.

لماذا؟

آه! إنه الشيطان! أنا أتذكّره،- وحتى إنه كرّر لي كل ما تعلّمته عند العجوز ديديم من آراء كزينوفانيس وهيراقليطس، وميليس وأناغور حول اللانهاية، والخلق واستحالة معرفة أي شيء.

وأنا الذي ظننتُ أني أستطيع أن أتّحد مع الله!

ثم أضاف وهو يضحك بمرارة:

- آه! جنون! جنون! هل هذا خطئي؟ الصلاة لا ترحم بالنسبة إليّ! قلبي أجفّ من صخرة! وقد كان في الماضي يفيض حباً!...

الرمال، والصباح يتبخران على الأفق كغبار مبخرة؛ وعند غروب الشمس، تتفتح أزهار النار على الصليب؛ ووسط الليل، غالباً ما بدا لي أن الكائنات كلّها، والأشياء كلها مجموعة في الصمت نفسه، تعبد الله معي. أوه! يا سحر الصلوات ويا أفراح النشوة، هدايا السماء، ماذا حل بكم؟

أتذكّر رحلة قمتُ بها مع آمون، بحثاً عن مكان منعزل من أجل إنشاء أديرة. كان ذلك آخر المساء؛ ووسط الليل، ونحن نتمتم بأناشيد، جنباً إلى جنب، دون أن نتكلم. كلما انخفضت الشمس، طال ظِلّا جسمينا كمسلتين تكبران وكانا سيمسيان أمامنا. بقطع عصَوينا غرسنا هنا وهناك صلباناً لكي نحدد مكان حجرة. تباطأ الليل في القدوم؛ وانتشرت على الأرض أمواج سوداء بحيث إن لوناً ورديّاً كان ما يزال يشغل السماء.

عندما كنتُ طفلاً، أتسلّى بحصى من أجل بناء صومعة. وكانت أمي بجانبي، تنظر إلي.

كانت ستلعنني على هجري، وهي تنزع بيديها شعرها الأبيض. ويظل جثمانها ممدداً وسط الكوخ، تحت السقف القصبي، بين الجدران المتداعية. من ثقب أدخل ضبع خطمه وهو يشخر!... رعب! رعب!

يشهق.

– لا، أموناريا ما كانت ستتركها.

أين هي الآن أموناريا؟

قد تكون في غرفة حارة تخلع ثيابها قطعة بعد أخرى، المعطف أولاً، ثم الحزام، ثم الثوب الأول، ثم الثاني الأخف، وقلاداتها كلها؛ وبخار الكافور يغطي أعضاءها كلها. وأخيراً تنام على الفسيفساء الفاتر. شعرها حول ردفيها يصنع جزّة سوداء، ومختنقة قليلاً في الجو الحار جداً، تتنفّس متوترة الجسم، ونهداها إلى الأمام. ها هو جسدي يتمرّد وسط العذاب، الشهوة تعذّبني. عذابان في آن واحد، هذا يفوق الحد! لم أعد أستطيع أن أتحمّل شخصي.

انحنى ونظر إلى الهاوية.

من يسقط يُقتل. الأمر سهل؛ يتدحرج إلى الجهة اليمنى؛ هي حركةٌ عليه أن يقوم بها - حركة واحدة.

وعند ذلك ظهرت امرأة عجوز.

انتفض أنطونيوس مرعوباً. – فقد ظنّ أنه رأى أمَّه وقد بُعثت من جديد.

ولكن هذه أكبر سناً بكثير، ونحولها فظيع.

كان هناك كفنٌ معقود حول رأسها، يتدلّى مع شعرها الأبيض حتى أسفل ساقيها الناعمتين، والدقيقتين كعكّازين. لمعان أسنانها، التي هي بلون العاج، يجعل لون جلدها الترابي أكثر دُكنة. ومحجراها مليئان بالظلمات، وفي العمق لَهَبان يترنّحان، كمصابيح قبر.

قالت:

– تقدّم! ما الذي يمنعك؟

تمتم أنطونيوس:

– أخشى أن أرتكب خطيئة.

أضافت:

– لكن الملك شاؤول قتل نفسه! ورازياس، العادل، قتل نفسه! القديسة بيلاجي الإنطاكية قتلت نفسها أيضاً! ودومين الحلبي وبنتاه، وثلاثة قدّيسين آخرين، قتلوا أنفسهم؛ وتذكّر كل المؤمنين الذين كانوا يجرون أمام الجلادين، متلهّفين للموت. لكي يستمتعوا به بصورة أسرع، وعذراوات ميليه خنقن أنفسهن بخيوط ملابسهن. والفيلسوف هيجيزياس، في سيركوزا، كان يعظ بذلك كثيراً جداً بحيث إن بيوت الدعارة

قد أقفرت وذهبت ساكناتها يشنقن أنفسهن في الحقول. وأشراف روما كانوا يتدبّرونها كفسق.

أنطونيوس:

– نعم، هذا حب قوي! كثير من النسّاك هووا فيه.

العجوز:

– القيام بشيء يساويك بالله، فكّر بهذا! لقد خلقك، وستدمّر عمله، أنت، بجرأتك، بحرية! متعة إيروسسترات ليست أعلى. ثم لقد سخر قلبك كفاية من روحك، بحيث إنك تنتقم من هذا أخيراً. لن تتألّم، وسينتهي ذلك بسرعة. ماذا تخشى؟ حفرة واسعة سوداء! وقد تكون خالية!

كان أنطونيوس يصغي إليها دون جواب. ومن الجهة الأخرى، ظهرت امرأة أخرى؛ شابة، ورائعة الجمال. في البداية ظن أنها أموناريا. ولكنها أطول منها وشقراء كالعسل، سمينة جداً، محمرَّة الخدّين، تضع ورداً على رأسها. وفستانها الطويل المليء بالبرَق له انعكاسات معدنية، وشفتاها المُلَحِمتان تبدوان بلون الدم؛ وأجفانها الثقيلة قليلاً غارقة في التعب حتى ليُقال عنها إنها عمياء.

همست:

– عش! استمتع! سليمان يأمر بالفرح! اذهب إلى حيث يقودك قلبك، وبحسب رغبة عينيك.

أنطونيوس:

- أي فرح أجدا! فقلبي تعِب، وعيناي معكرتان.

أضافت:

- اذهب إلى ضاحية راكوتيس، وادفع باب بيت مطلي باللون الأزرق. وحين تصبح في الباحة التي يترقرق فيها نبع ماء، ستتقدّم إليك امرأة؛ ترتدي شملة بيضاء، فيها خطوط ذهبية، وشعرها منفلت، وضحكتها شبيهة برنين الأجراس. ماهرة. ستذوق بمداعبتها كبرياء التعلّم وإرواء الحاجة.

ولن تعرف أيضاً، اضطراب المومسات، والارتفاعات، والانتزاعات، ولا فرح رؤية من هي محترمةَ، وهي مرتدية ملابسها، عاريةً.

هل ضممتَ إلى صدرك عذراء تحبّك؟ وهل تتذكّر ألوان حيائها، وتعذيب ضميرها الذي يمضي تحت دفق من الدموع العذبة؟

هل يمكنك أن ترى نفسك ماشياً في الغابات تحت ضوء القمر؟ ولدى ضغط يديكما الملتحمتين تعبركما رعشة. وعيناكما المتقاربتان ترويان كلاً منكما كأمواج لامادّية، وقلباكما يمتلئان، وينفجران، إنها موجة لذيذة، وسُكْر غامر.

العجوز:

- الإنسان ليس بحاجة لامتلاك الأفراح لكي يشعر بمرارتها! يكفيك أن تراها من بعيد، حتى يستولي عليك

الاشمئزاز. لا بدّ أنك تعِب من رتابة الأفعال نفسها، ومن طول الأيام، ومن قبح العالم، وحماقة الشمس.

أنطونيوس:

– أوه! نعم، كل ما تنيره لا يعجبني.

الشابة:

– أيها الناسك! أيها الناسك! ستجد ماساً بين الحصى، وينابيع تحت الرمال، وتلذّذ في المصادفات التي تحتقرها؛ وحتى هناك أماكن على الأرض جميلة جداً بحيث إن المرء ليرغب في ضمها إلى صدره.

العجوز:

– كل مساء، وأنت تنام عليها، تأمل أن تغطّيك قريباً!

الشابة:

– ومع ذلك أنت تؤمن بقيامة الجسد، الذي هو انتقال الحياة إلى الأبدية.

بينما كانت الفتاة تتكلّم ازدادت العجوز نحولاً؛ وفوق رأسها الذي بات مجرداً من الشعر، يحوم خفّاش في الهواء.

أصبحت الشابة أكثر سمنةً. فستانها يدغدغ، وأنفها يخفق، ودارت عيناها بوهن.

قالت الأولى وهي تفتح ذراعيها:

– تعال! أنا المواساة، الراحة، النسيان، والهدوء الأبدي!

وقالت الثانية وهي تقدم نهديها:

- أنا المنوِّمة، أنا الفرح، أنا الحياة، أنا السعادة التي لا نفاد لها.

استدار أنطونيوس لكي يهرب. وضعت كل منهما يدها على كتف.

ابتعد الكفن وكشف عن الهيكل العظمي للموت.

انشق الفستان وأظهر الجسد الكامل للذّة، الذي يفصّلها نحيلة، ضخمة الردفين، وأطراف شعرها الطويل أمواج تطير.

ظل أنطونيوس جامداً بين الاثنتين، يتأمّلهما.

قال له الموت:

- حالاً أو بعد حين، لا يهم! كالشموس، والشعوب والمدن، والملوك، وثلوج الجبال، وعشب الحقول. أنا أطير أعلى من الباز، وأجري أسرع من الغزال. بل إني أبلغ الرجاء، وقد غلبتُ ابن الله.

اللذة:

- لا تقاوم! أنا الكلّية القدرة! الغابات تردّد تنهّداتي، والأمواج تتحرّك بغضباتي. والفضيلة والجرأة والورع تنحلّ كلها في عطر فمي. أرافق الرجل في كل خطوة يخطوها؛- وعلى عتبة القبر يلتفت نحوي.

الموت:

- سأكشف لك ما تسعى إلى فهمه، على ضوء المشاعل، وعلى وجوه الأموات، وحين تتسكّع ما وراء الأهرامات، في هذه

الرمال الشاسعة المكوَّنة من الأنقاض البشرية. بين وقت وآخر، ستتدحرج تحت صندلك قطعة من جمجمة. ستأخذ الغبار، وتفركه بأصابعك؛ وفكرك المختلط به سيتردّى في العدم.

اللذة:

– هوّتي أعمق! رخام أوحى بحب شبق. يتسابقون إلى لقاءات ترعب. يرتبطون بسلاسل تُلعَن. ومن هنا يأتي سحر المومسات، وغرابة الأحلام، واتساع حزني.

الموت:

– سخريتي تتجاوز الآخرين جميعاً! هناك اختلاجات للمتعة في جنازات الملوك، وفي استئصال شعب؛ ويحاربون مع الموسيقى، والريش، والأعلام، والأدوات الذهبية، وانتشار الاحتفالات من أجل منحي المزيد من المديح.

اللذة:

– غضبي يعادل غضبك، أنا أعوي وأعضّ. ولديّ عرق المحتضر، ومظاهر الجثة.

الموت:

– أنا الذي أجعلك جادّة، فلنتعانق!

سخر الموت، وزأرت اللذة. طوق كلّ منهما خصر الآخر، وغنّيا معا:

– أسرّع انحلال المادة!

– أسهّل تبعثر البذور!

- أنت تدمّر من أجل تجديداتي!
- أنت تلِدين من أجل تدميراتي!
- نشّط قوتي!
- أخصبي تعفّني!

وأصبح صوتهما الذي انتشر صداه ليملأ الأفق قوياً جداً بحيث إن أنطونيوس سقط على ظهره.

هزّة بين وقتٍ وآخر جعلته يفتح عينيه؛ فرأى وسط الظلمات نوعاً من الوحوش أمامه.

إنه رأسُ ميت، مع تاج من الورود. يعلو جسم امرأة بياضها صدفي. وإلى الأسفل، كفن عليه نقاط ذهبية، يشكّل ما يشبه الذيل؛ والجسم كله يتماوج، على شكل دودة عملاقة تقف.

الرؤية خفّت، ثم اختفت.

نهض أنطونيوس.

مرة أخرى رأى الشيطان، وتحت مظهره المضاعف: روح الزنا وروح التدمير.

- ما من واحدة منهما ترعبني. أطرد السعادة، وأشعر أني خالد.

هكذا ليس الموت إلا وهماً، حجاباً، يغطي أمكنة من استمرارية الحياة.

ولكن لمَ كانت الماهية وحيدة، ولماذا تتنوّع الأشكال؟

يجب أن يوجد في مكانٍ ما أشكال أولية، ليست أجسامها إلا صوراً. إذا ما تمكّن المرء من رؤيتها عرف الصلة بين المادة والفكر، وعلى ما يقوم الكائن.

هذه الأشكال كانت مرسومة في بابل على جدار معبد بيلوس، وهي تغطي فسيفساء في مرفأ قرطاج. أنا نفسي لمحتُ في السماء ما يشبه أشكالاً من الأرواح. وتلك التي تعبر الصحراء تلاقي حيوانات تتجاوز التصوّر.

ومقابلي، على الجانب الآخر من نهر النيل، يظهر أبو الهول. يمدّ قائمته، ويهز الأشرطة على جبينه، وينام على ظهره.

والتنّين، يقفز ويطير ويبصق النار من منخريه ومن ذيله، ويصفّق بجناحيه، والوهم بعينيه الخضراوين يدور وينبح.

حلقات شعره، المرسلة إلى جهة، تتداخل مع شعر خصره، ومن الأخرى ينزل حتى الرمل ويتحرك مع اهتزاز جسمه كله.

أبو الهول جامد ينظر إلى الخَيْمَر[6]:

– قف هنا أيها الخَيْمَر!

الخَيْمَر:

– لا، أبداً!

أبو الهول:

– لا تجرِ بسرعة كبيرة، ولا تطِر عالياً جداً، ولا تنبح بصوت قوي جداً!

---

[6] حيوان خرافي له رأس أسد وجسم عنزة وذيل تنّين، يقذف ناراً من فمه. (م)

الخَيْمَر:

– لا تنادني بعد الآن! لا تنادِني بعد الآن! لأنك تظل أبكم دائماً!

أبو الهول:

– كفّ عن إلقاء ألسنة لهبك على وجهي، وعن إطلاق هذه العواءات في أذني؛ فلن تذيب غرانيتي!

الخَيْمَر:

– لن تقبض علي، يا أبا الهول الرهيب!

أبو الهول:

– أنت أكثر جنوناً من أن تبقى معي!

الخَيْمَر:

– وأنت أثقل من أن تلحق بي!

أبو الهول:

– إلى أين أنت ذاهب، حتى تجري بهذه السرعة؟

الخيمر:

– أنا أجري في ممرات المتاهة، أحلّق فوق الجبال، أطير على وجه الأمواج، أنبح في قاع الهوّات، وأتعلّق بفمي بأطراف الغيوم، وبذيلي الطويل أمسح الشطآن؛ ولقد اتّخذت الهضاب منحنياتها بحسب شكل كتفيّ. أما أنت، فإني أجدك جامداً بصورة سرمدية، أو بطرف مخلبك ترسم أبجديات على الرمال.

أبو الهول:

– ذلك لأني أحفظ سرّي! أفكّر وأحسب.

البحر يعود إلى سريره، والقمح يتمايل مع الرياح، والقوافل تسير، والغبار يطير، والمدن تنهار؛- ونظرتي التي لا يستطيع أحدٌ أن يحوّلها تظل مشدودة عبر الأشياء نحو أفق عصيّ المنال.

الخيمر:

– أنا خفيف وفرح! أكتشف للبشر آفاقاً مبهرة مع جنان في الغيوم ومباهج بعيدة. أسكب في أرواحهم الجنونات الأبدية، مشاريع سعادة، ومخطّطات مستقبلية، وأحلاماً بالمجد وأَيمان بالحب والقرارات الفاضلة.

أدفع إلى الأسفار الخطرة والمشروعات الكبرى. وقد قطعتُ بقائمتي عجائب العمارة؛ وأنا الذي علّقتُ أجراساً على قبر بوريسينا، وأحطتُ بجدار من الأوريشالك[7] أرصفة الأتلانتيد.

أبحث عن عطور جديدة، وأزهار أعرَض، ومسرّات غير مجرَّبة، وإذا وجدتُ في مكان ما رجلاً يرتكز تفكيره على الحكمة، فإني أنقضّ عليه وأخنقه.

أبو الهول:

– لقد افترستُ كلَّ من تعذّبهم رغبةُ الله.

لكي يصعد الأقوى من بينهم إلى جبهتي الملكية، فإنهم يصعدون على حزوز شُريطاتي، كما يصعدون على درجات سلم.

---

[7] معدن ثمين عند الإغريق القدماء. وأطلق فيما بعد على النحاس والبرونز. (م)

يستولي عليهم التعب، ويسقطون من تلقاء أنفسهم على ظهورهم.

بدأ أنطونيوس يرتجف.

لم يعد أمام كوخه، بل في الصحراء،- وإلى جانبه حيوانان متوحّشان، يلامس خطماهما كتفيه.

أبو الهول:

– أوه، أيتها النزوة، احمليني على جناحيك لكي أروّح عن نفسي وأنسى حزني!

الخيمر:

– أوه، أيها المجهول، أنا مدلَّه بعينيك! وكضبع متحرّق أدور من حولك، ملتمساً الإخصابات التي تنهشني الحاجة إليها.

افتح فمك، وارفع قدميك، واصعد على ظهري!

أبو الهول:

– قدماي، منذ أن كانتا على الأرض، وأنا لم أعد أستطيع رفعهما. الفطور تنمو كقوباء على خطمي. ومن فرط التفكير، لم يعد لدي ما أقوله.

الخيمر:

– أنت تكذب. يا أبا الهول الخبيث! فمن أين لك أن تناديني دائماً وتصدّني؟

أبو الهول:

– هذا أنت، النزوة التي لا تُضبَط، التي تمر وتحوم!

الخيمر:

– هل الخطأ خطئي؟ ماذا؟ دعني!

وعوى.

أبو الهول:

– أنت تتحرك، أنت تهرب مني!

وشخر.

الخيمر:

– لنحاول! أنت تسحقني!

أبو الهول:

– لا! مستحيل!

وهو يغوص شيئاً فشيئاً اختفى في الرمال،- في حين أن الخيمر، الذي يزحف ولسانه ممدود، يبتعد راسماً دوائر. ونفَس فمه أحدث ضباباً.

في هذا الضباب، لمح أنطونيوس غيوماً تسير، ومنحنيات مبهمة. وأخيراً ميّز ما يشبه مظهر جسم بشري.

وتقدّمت أولاً مجموعة أستومي، وهم يشبهون فقاعات هواء تخترقها الشمس.

– لا تتألّم ألماً شديداً! إن قطرات المطر تجرحنا، والأصوات الخاطئة تخدشنا، والظلمات تُعمينا. ولما كنا مكوّنين من نسائم وعطور، فإننا نتدحرج ونرفرف أكثر من الأحلام بقليل، ولسنا كائنات تماماً...

النسانيس ليس لها إلا عين واحدة وخد واحد، ويد واحدة وساق واحدة، ونصف جسم، ونصف قلب. ويقولون بصوت عالٍ جداً:

– نحن نعيش على هوانا تماماً في أنصاف بيوتنا، مع أنصاف نسائنا وأنصاف أولادنا.

البليمي محرومون من الرأس نهائياً:

– أكتافنا أعرض؛ وليس هناك من عجل ولا من وحيد القرن ولا فيل، بقادر على حمل ما نحمله.

أنواع من الملامح، وكوجه غامض مطبوع على صدورنا، هذا كل شيء! نفكر بالهضم، ونتهرّب من الإفرازات. والله بالنسبة إلينا يحلّق بسلام في الكيلوس الداخلي.

نمشي طريقنا بخط مستقيم، ونجتاز العقبات كلها، ونتجنّب الهوّات كلها؛ ونحن الأشخاص الأكثر دأباً، والأكثر سعادة، والأكثر فضيلة.

البيغميه:

– نحن رجال طيبون، نتجمّع على العالم كالديدان على حدبة جمل.

يُحرقوننا أو يُغرقوننا أو يسحقوننا؛ ثم نظهر من جديد دائماً، أكثر حيوية وعدداً،- بكمية رهيبة!

السيابود:

– مثبّتون في الأرض بشعورنا، نحن طِوال كالمعترشات، نطعم بوساطة أرجلنا، الواسعة كالمظلات؛ والضوء يصلنا عبر كثافة أعقابنا. لا إزعاج، ولا عمل؛ رؤوسنا أخفض ما يمكن أن يكون، هذا هو سر السعادة!

أفخاذهم المرفوعة تتكاثر كجذوع الأشجار. وتظهر غابة. يجري فيها قِردة على أربع قوائم؛ إنهم رجال برأس كلب.

كلبيو الرأس:

– نحن نقفز من غصن إلى غصن، لنمتص البيوض. وننزع ريش العصافير الصغيرة، ونضع أعشاشها على رؤوسنا كقبعات.

ولا نتوانى عن انتزاع ضروع الأبقار، ونفقأ عيون الأوشاق، ونتغوّط من أعالي الأشجار، ونبسط قذاراتنا تحت الشمس.

بقوة أذرعنا ووحشية قلوبنا، نحن السادة؛ فنحن نقطف الأزهار ونسحق الثمار ونعكّر الينابيع ونغتصب النساء.

أيها الرفاق الشجعان! طقطقوا أفكاككم!

دم ولبن يسيلان من شفاههم، والمطر يتقطّر من ظهورهم المشعرة!

استنشق أنطونيوس طراوة الأوراق الخضراء. إنها تتحرّك، وتتصادم؛ وفجأة ظهر وعل كبير أسود، له رأس ثور، يحمل بين أذنيه أيكة من القرون البيضاء.

السادوزاغ:

- فروع قرني الأربعة والسبعون فارغة كالمزامير.

حين ألتفت نحو ريح الجنوب، يخرج منها صوت يجذب إليّ حيوانات فرِحة. الثعابين تلتف على قوائمي، والدبابير تلتصق على منخريّ والببغاوات واليمام وأبو منجل تحط على أغصاني،- اسمع!

وقلب غابته، فصدرت موسيقى جميلة جمالاً يفوق الوصف. فضغط أنطونيوس على قلبه. إذ بدا له أن هذا النغم يقتلع قلبه.

السادوزاغ:

- أما عندما ألتفت نحو رياح الشمال، فإن غابتي تصبح أكثر من كتيبة رماح، وتُخرج عواء؛ الغابات ترتجف، والأنهار تفيض، والثمار تنفجر، والعشب يقف كشعر جبان.

اسمع!

وأمال أغصانه، فخرجت منها صرخات منكرة؛ فشعر أنطونيوس وكأنه ممزَّق. وازداد رعبه حين رأى المارتيكوراس؛ وهو أسد عملاق أحمر، له وجه بشري، مع ثلاثة صفوف من الأسنان.

- تموّجات شعري الأحمر القاني تمتزج مع انعكاسات الرمال الكبرى. أنفخ من منخريّ رعب العزلات. أبصق الطاعون، آكل الجيوش عندما تغامر بالدخول إلى الصحراء.

مخالبي ملتوية ككلّابات، وأسناني مقطوعة كالمنشار؛ وذيلي الذي يلتف، مليء بالإبر أقذفها يميناً ويساراً، وإلى الأمام وإلى الخلف.- انظر! انظر!

وأطلق المارتيكوراس الإبر من ذيله، فتصلّبت كسهام في كل اتجاه. وهطلت قطرات من الدم طارقة أوراق الأشجار.

الكاتوبلباس جاموس أسود له رأس خنزير يهبط حتى الأرض، ومتعلّق بكتفيه بعنق نحيل، وطويل ورخو كأنبوب فارغ. ينام على بطنه، وجسمه يختفي تحت العرف الكبير ذي الشعر القاسي الذي يغطي وجهه.

– ضخم وكئيب وضار، أحسّ باستمرار بحرارة الطين تحت بطني. رأسي ثقيل جداً بحيث إنه من المستحيل عليّ أن أحمله. أدوّره من حولي، ببطء؛ وأفتح فكّيّ وأنتزع بلساني العشب السام الذي أرطّبه بأنفاسي. ذات مرة، افترستُ قوائمي، دون أن أدري.

لا أحد يا أنطونيوس رأى عينيّ، أو من رأوهما ماتوا. إذا رفعتُ أجفاني،- أجفاني الوردية المنتفخة،- فسوف تموت حالاً.

أنطونيوس:

– أوه! ذاك!... إذا رغبت؟... إن غباءه يجذبني. لا! لا! لا أريد!

أمعن النظر إلى الأرض. فرأى العشب يشتعل، وفي هذه الالتواءات ألسنة اللهب، رأى الصنّاجة، وهي حية كبيرة ضخمة بنفسجية اللون، لها حرف ثلاثي الفصوص، مع سنّين، واحدة في الأعلى والأخرى في الأسفل.

- احترس! فسوف تسقط في فمي! أنا أشرب النار - النار هي أنا- وأمسح بها من كل مكان: من الغيوم ومن الحصى ومن الأشجار اليابسة، ومن شعر الحيوانات، ومن أسطح المستنقعات. درجة حرارتي تُبقي البراكين؛ وأنا أصنع بريق الأحجار الكريمة ولون المعادن.

القِشعام الأكلف، أسد له منقار نسر وجناحان أبيضان، وقوائم حمراء، وعنق أزرق.

- أنا سيد الروائع العميقة. أعرف سر القبور التي يرقد فيها الملوك القدماء.

تخرج سلسلةٌ من الجدار فتُبقي رأسهم مستقيماً. وبجانبهم، أحواض من السمّاق، تطفو نساء أحبّوهن على سوائل سوداء. كنوزهم مصفوفة في قاعات، على شكل معينات، وأكوام وأهرام. وإلى الأسفل، تحت القبور، بعد رحلة طويلة في الظلمات الخانقة، توجد أنهار من الذهب مع غابات من الماس، ومروج من البهرمان، وبحيرات من الزئبق.

أستند بظهري إلى باب السرداب، ومخلبي مشرع في الهواء، أراقب بعينيّ المشعّتين من يريدون أن يأتوا. السهل الشاسع،

حتى جوف الأفق، عار تماماً ومبيضّ من عظام المسافرين. من أجلك الضلفات البرونزية تنفتحان، وستستنشق بخار المناجم، وستنزل إلى الكهوف... بسرعة! بسرعة!

وحفر الأرض بقوائمه، وصاح كالديك.

ردّ عليه ألف صوت. وارتجفت الغابة.

وظهرت كل أنواع الحيوانات المخيفة: التراجيلافوس؛ الذي نصفه وعل ونصفه ثور. والميرميكوليو؛ الأسد من الأمام، والنملة من الخلف، والذي جهازه التناسلي مقلوب. والأصَلة أكسار؛ التي يبلغ طولها ستين ذراعاً، التي أرعبت موسى. والسرعوب الكبير الذي يقتل الأشجار برائحته. وبريستوروس؛ الذي يجعل من يلامسه أبله. وميراغ؛ وهو أرنب له قرنان، يسكن الجزر البحرية. والفهد فالمان يبقر بطنه من فرط العواء. والسينار؛ وهو دبّ ذو ثلاثة رؤوس، يمزّق صغاره بلسانه. والكلب سيبوس الذي ينشر على الصخور لبن أثدائه الأزرق. والبعوض يطنّ، والعلجوم يقفز، والأفاعي تفحّ، والبروق تلمع، والبرد يتساقط.

وصلت حشرجات مليئة بتشريحات رائعة؛ إنها رؤوس قاطورات، على قوائم يحمورات، وبومات لها ذيل أفعى. وخنازير لها خطم نمر، وعنزات لها عجز حمار. وضفادع مشعرة، مثل الدببة. وحرباوات ضخمة كفرس النهر. وعجول

لها رأسان، أحدها يبكي والآخر يخور. وأجنّة رباعية مرتبطة بالسرّة، وتدور كالبلبل. وبطون مجنّحة تطير كالذباب.

إنها تهطل من السماء، وتصعد من الأرض، وتسيل من الصخور. حدقات تلمع من كل صوب، وأفواه تزأر؛ وصدور تنتفخ؛ ومخالب تستطيل؛ وأسنان تصطكّ، ولحوم تطبطب؛ منها ما يلد، وما يتسافد، ويتفارس لقمة واحدة.

تختنق من كثرة عددها، وتتكاثر بتلامسها، ويصعد بعضها على بعض؛ وكلها تتحرّك حول أنطونيوس بتمايل منتظم، كما لو أن الأرض ظهر سفينة. أحس على ربلتيه بالحلزون يسير، وعلى يديه برودة أجسام الأفاعي؛ والعناكب تنسج شباكها من حوله لتسجنه بداخلها.

بيد أن حلقة الوحوش انفتحت، وصحَت السماء فجأة، وتقدم أحادي القرن:

- جرياً! جرياً!

لدي حوافر عاجية، وأسنان فولاذية، ورأسي لونه أرجواني، وجسمي لونه ثلجي، وقرن جبهتي له ألوان قوس قزح.

أسافر من بلاد الكلدانيين إلى صحراء التتار، على ضفاف الغانج وبلاد ما بين النهرين. أتجاوز النعامات، وأجري بسرعة هائلة بحيث إني أجرّ الرياح. أحكّ ظهري بأشجار النخيل، وأجري في غابات الخيزران. وبقفزة واحدة أتجاوز الأنهار. يمامات تطير فوقي، وحدها عذراء يمكنها أن تلجمني.

- جرياً! جرياً!

نظر إليه أنطونيوس وهو يهرب.

ولمّا ظلت عيناه مرفوعتين، لمح كل العصافير التي تتغذى من الريح: الغويت والأهوتي والأفالين وإيوكينث جبال كاف وهوماي العرب التي هي أرواح رجال مقتولين. سمع الببغاوات تلفظ كلاماً بشرياً ثم كفيّات القدم الكبيرة التي تشهق كالأطفال أو تسخر كالعجائز.

هواء مالح ضرب منخريه. الآن يمتد شاطئ أمامه.

من بعيد ترتفع نوافير ماء تُطلقها حيتان. ومن جوف الأفق، حيوانات البحر، المستديرة كالقرب، والمسطحة كالأنصال، والمسننة كالمنشار تتقدم زاحفة على الرمل.

- سوف تأتي معنا، إلى امتداداتنا التي لم ينزل إليها أحد بعد!

شعوب شتّى تسكن بلدان المحيط. بعضها يقيم مع العواصف؛ وبعضها الآخر يسبح في شفافية الأمواج الباردة، وتقضم كالعجول سهول المرجان، وتسحب ببوقها جزر المد والجزر، أو تحمل على أكتافها ثقل ينابيع البحر ومضات فسفورية تلمع من شارب الفقمات، ومن حراشف الأسماك. دببة تدور كالعجلات وقرون آمون تنفتح كأسلاك، ومحارات تجعل مفصّلاتها تصرخ، وبوليبات تفتح مجسّاتها وقناديل

البحر ترتعش مثل كرات الكريستال، وإسفنجات تطفو، وشقائق النعمان تبصق ماءً؛ ونمَت طحالب وفوقس.

وكل نوع من النباتات يمتد كمجاديف ويلتوي ككلابات ويطول إلى رؤوس ويستدير كمروحة. ويقطينات لها شكل نهود ومعرّشات لها شكل أفاعي. وديدام بابل، التي هي أشجار، ثمارها رؤوس بشرية؛ والماندردورات تغني وجَزر باراس يجري على العشب.

النباتات الآن لم تعد تختلف عن الحيوانات. المدخنة لها شكل أشجار الجميز، وتحمل أذرعاً على أغصانها. ظنَّ أنطونيوس أنه رأى دودة بين ورقتين؛ إنها فراشة تطير. ذهب ليمشي على حصاة، فقفزت جرادة رمادية. حشرات شبيهة ببتلات الورود الجورية تزيّن شجيرة؛ بقايا يأفوفات تصنع على الأرض طبقة ثلجية.

ثم اختلطت النباتات بالحجارة.

حصى تشبه أدمغة، ونوازل تشبه أثداء، وأزهار حديدية تشبه سجادات مزينة بأشكال.

في قطع الجليد، ميز إزهراراً، وآثار أحراج وقواقع – ولا يُعرف ما إذا كانت آثار هذه الأشياء، أم هي هذه الأشياء نفسها. ماسات تشعّ كعيون، ومعادن تنبض.

لم يعد خائفاً!

استلقى على بطنه، واستند على مرفقيه، ونظر وهو يحبس أنفاسه.

حشرات لم يعد لديها معدة تواصل الأكل، وسراخس يابسة تُزهر، وأعضاء مفقودة تنبت من جديد.

ولمح أخيراً كتلاً صغيرة كروية، بحجم رأس الدبوس، مزوّدة بأهداب من حولها، يحرّكها اهتزاز.

قال هاذياً:

– أوه يا أيتها السعادة! أيتها السعادة! رأيتُ الحياة تولد، ورأيتُ الحركة تبدأ. دم عروقي ينبض قوياً جداً بحيث إنه يكاد أن يمزّقها. أرغب في الطيران، في السباحة، في النباح، في الخوار، في العواء. أريد أن يكون لي أجنحة، درَقة، قشرة، أن أنفث دخاناً، أن أحمل بوقاً، أن ألوي جسدي، أوزّع نفسي في كل مكان، أن أكون في كل شيء، أن أنطلق مع الروائح، وأنمو كالنباتات، وأجري كالماء، وأهتزّ كالصوت، وألمع كالضوء، وأنحشر في كل الأشكال، وأدخل إلى كل ذرة، وأنزل إلى قاع المادة،- أن أكون المادّة.

وأخيراً طلع النهار، وكستائر بيت القربان التي تُرفع، غيوم تجري بحركات سريعة كشفت السماء.

في الوسط تماماً، وفي قرص الشمس نفسه، يشعّ وجه يسوع المسيح.

رسم أنطونيوس إشارة الصليب، وبدأ يصلّي.

لاموني جميعا لأني غادرت البيت: فأمي سقطت ميتة، وأختي أشارت إلي من بعيد لكي أعود، والأخرى بكت. وأموناريا، تلك الطفلة التي كنت ألقاها كل مساء عند غدير الماء، وهي تؤوي جواميسها، ركضت خلفي، وخواتم قدميها تلمع في الغبار، وفستانها المفتوح عند ردفيها يرفرف مع الرياح. والناسك العجوز الذي كان يرافقني، يصرخ متلفظا بشتائم. جملانا ما يزالان يعدوان، ولم أر أحدا بعد ذلك.

في البداية اخترت مسكني في قبر أحد الفراعنة. ولكن سحرا سرى في هذه القصور تحت الأرضية، حيث يبدو الهواء كثيفا بسبب دخان الأطياب القديم. ومن أسفل المقبرة سمعت صوتا متألما يناديني؛ أو بالأحرى، رأيت الأشياء الشنيعة المرسومة على الجدران تتخلق فجأة، ففررت حتى شاطئ البحر الأحمر، حيث قلعة مهدمة. ثمة كان رفاقي سرطانات تتسلل بين الحجارة، وفوق رأسي نسور تحلق باستمرار في السماء الصافية. وفي الليل تمزقني المخالب وتعضني المناقير، وتتمسح بي الأجنحة الوانية. وشياطين مرعبة تعوي في أذني، وتقلبني أرضا، حتى أنقذني أفراد قافلة ذاهبة إلى الإسكندرية، ذات مرة، وأخذوني معهم.

9789933592516

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية ص.ب 1018 هاتف 2422339